هدية العدد

١٢٧

مايو ٢٠١٥

الفرار في عام ١٩٣٤

قصص صينية

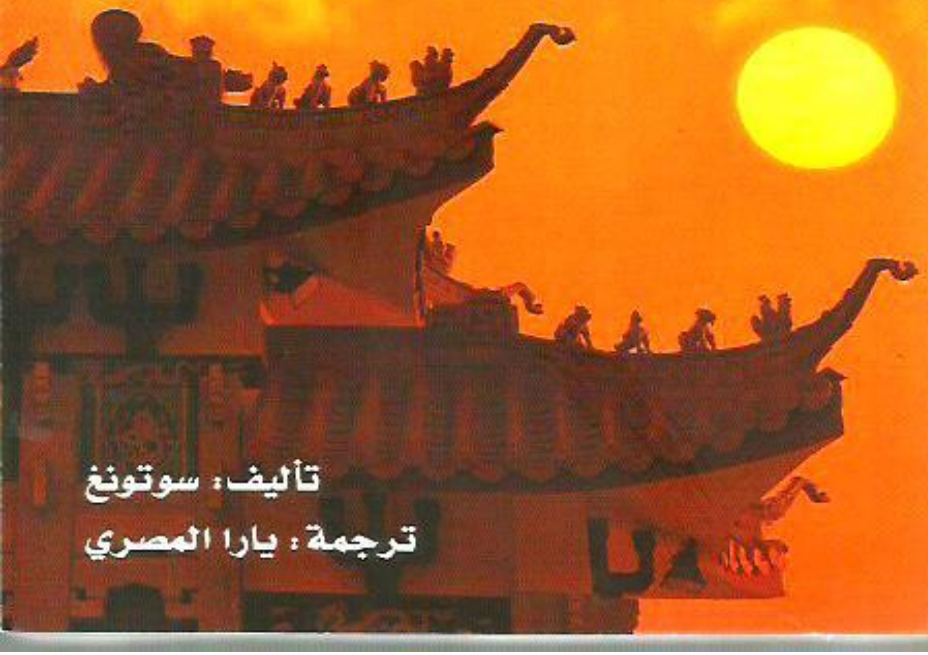

تأليف: سوتونغ

ترجمة: يارا المصري

كتاب

دبي الثقافية

يصدر عن مجلة دبي الثقافية
ويوزع مجاناً مع المجلة
الإصدار ١٢٧

الفرار في عام ١٩٣٤

قصص صينية

تأليف: سوتونغ

ترجمة: يارا المصري

■ الطبعة الأولى، مايو ٢٠١٥

■ حقوق الطبع محفوظة لدار الصدى

كتاب دبي الثقافية

المدير العام رئيس التحرير
سيف محمد المري

مدير التحرير
نواف يونس

متابعة
يحيى البطاط
محمد غبريس

المدير الفني
أيمن رمسيس

الإخراج والتنفيذ
محمد سمير

مدير العلاقات العامة
محمد بن مسعود

مجلة دبي الثقافية تصدر عن

الصدى
دار الصدى للصحافة والنشر

www.alsada.ae

التحرير والادارة دبي:
الإمارات العربية المتحدة دبي
منطقة الصفا شارع الشيخ زايد
هاتف: ٣٤٢٢٢٢٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٢٢٩٢٩ /٩٧١٤+
أبوظبي هاتف: ٦٢٦٨٨٩٢/٩٧١٢+
فاكس: ٦٢٦٨٨٨٣/٩٧١٢+

الإعلانات والتسويق:
دبي شارع الشيخ زايد
برج المدينة (٢) شقة ٤٠٣ ص.ب.
هاتف: ٣٣١٤٣١٤/٩٧١٤+
فاكس: ٣٣٢٢٢٩٢/٩٧١٤+

■ التوزيع والاشتراكات:
هاتف: ٣٤٩٠١٠٠ /٩٧١٤+
فاكس: ٣٤٩٠٦٠٠/٩٧١٤+

هذا الإصدار

بقلم: سيف المري

قراءنا الأعزاء، يسعدنا ويشرفنا في مجلة «دبي الثقافية» أن نتواصل معكم من خلال هذا الإصدار «الفرار في عام ١٩٣٤» للكاتبة والمترجمة يارا المصري، محاولين التواصل مع جميع قراء مجلتنا على رغم الصعوبات التي يمر بها عالمنا العربي وهو يعيش هذه المرحلة الجديدة من تاريخه.

وها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد، وكل ما نتمناه من قرائنا الأعزاء هو التواصل معنا، وإتحافنا بآرائهم

وملاحظاتهم حول هذه الإصدارات التي نقصد بها خدمة الثقافة العربية، والتعريف برموزها، راجين إيجاد العذر لنا عند وجود أي تقصير.

والله من وراء القصد

الفـرار
في عام ١٩٣٤
قصص صينية

تأليف: سوتونغ

ترجمة: يارا المصري

سوتونغ.. الإبداع استناداً إلى ألم الذاكرة

سمعت للمرة الأولى باسم الكاتب الصيني سوتونغ في إحدى محاضرات مادة النصوص والنقد أثناء دراستي بكلية الألسن ـ قسم اللغة الصينية، وكان ما سمعته لا يتعدى الاسم وعناوين عدة أعمال. وفي عام ٢٠١٢، نظم المركز القومي للترجمة في القاهرة ورشة لترجمة بعض الأعمال الإبداعية الصينية إلى اللغة العربية تحت إشراف د. محسن فرجاني أستاذ الأدب الصيني والمترجم القدير عن اللغة الصينية، وكانت تلك هي المرة الثانية التي أتعرف فيها على سوتونغ من خلال حديث د. محسن فرجاني الذي قدم لنا تفاصيل أكثر عنه وعن أعماله. واخترت حينها قصتين للترجمة من أعمال سوتونغ هما «جولة في منزلنا» و«يوميات شهر أغسطس»

يُعتبر الكاتب الصيني سوتونغ أحد أهم الكتاب البارزين الذين ظهروا منذ أكثر من ثلاثين عاماً وهي «الفترة الجديدة للأدب الصيني المعاصر» في الصين والتي بدأت منذ عام ١٩٧٦ أي بعد الإطاحة بعصابة الأربعة، وفي ثمانينيات القرن الماضي، عَمِل سوتونغ وغيره من الكتاب مثل يو هوا، قي فيْ، ما يوان، قونغ فيينغ، بيْ تسن، ومويان على خلق أشكال وطرق

إبداعية تتجاوز مَن سبقهم من الكتاب ممَّن مروا بتجربة الثورة الثقافية، وبهذا أصبح سوتونغ وتلك المجموعة من الكتاب القوة الرئيسية التي تدفع بالأدب الصيني المعاصر إلى آفاق إبداعية جديدة، وقد أحدثت أعمال هؤلاء الكتاب تأثيراً عالمياً واسعاً، من نتائجه أن يفوز مويان بجائزة نوبل للآداب، ولذلك يمكن القول إن النظر في هذه الأعمال الإبداعية يكشف عن زاوية جديدة للغاية ومهمة كذلك فيما يخص الأدب الصيني المعاصر، ويحمل أيضاً مغزى قوياً في تلخيص مسيرة تطور كتابة الرواية في الصين خلال أكثر من ثلاثين عاماً.

يمارس سوتونغ العمل الإبداعي منذ أكثر من عشرين عاماً، وقد كتب الرواية الطويلة والمتوسطة والقصيرة. وتظهر شخصيته بشكل بارز في كتاباته، كما يكشف أسلوبه عن وعي جماليٍّ بمنطقة جنوب الصين وخصوصيتها وطبيعتها.

ولد سوتونغ في شهر يناير عام ١٩٦٣، في مقاطعة جيانغسو في جنوب الصين. وفي عام ١٩٨٠ التحق بقسم اللغة الصينية بجامعة المعلمين في بكين ودرس هناك. وبدأ الكتابة عام ١٩٨٣ ويعمل الآن كاتباً في رابطة الكتاب الصينين التابعة لمقاطعة جيانغسو، حيث إنه متفرغ تماماً للكتابة والتأليف. وقد حازت أعمال سوتونغ على جوائز

عديدة، منها جائزة البوكر الآسيوية في دورتها الثالثة عام ٢٠٠٩ عن روايته الطويلة (قارب النجاة)، وأدرجت روايته (زوجات ومحظيات) ضمن أفضل مائة رواية صينية في القرن العشرين. وحَصُل أيضاً على جائزة لوشون الأدبية في دورتها الخامسة عام ٢٠١٠، وهي واحدة من أرفع الجوائز الأدبية في الصين، كما حاز على جائزة يو دافو الأدبية عام ٢٠١٢

رواية (الفرار في عام ١٩٣٤):

عرّفت هذه الرواية التي نُشرت عام ١٩٨٧ القراءَ الصينيين بالكاتب سوتونغ وساهمت في شهرته ككاتبٍ مميز. ولهذا العمل جاذبيته وسحره، كأعمال سوتونغ جميعها. تدور الرواية في قرية جبلية صغيرة، يطل منها الكتاب على تاريخ إحدى العائلات ومن خلال أفراد العائلة يُظهر الكاتب الخلفيةَ التاريخية لفرارهم من القرية نحو الحياة المدينية الجديدة. وتمثل الرواية نوعاً من التفسير والشرح لذلك العصر. و«عام ١٩٣٤» لا يشير بالتحديد إلى عام ١٩٣٤، بل هو نوع من المرادف الزمني لذلك العصر، ونوع من التلخيص، ولهذا فيجب أن نركز على «الفرار» الذي هو المحور الرئيس في الرواية. وكان نجاح الرواية قائماً على قدرة الكاتب الفريدة في السرد،

وقدرته على التحرك بين ذكريات مسقط رأسه وتخيلاته والحكايات التي يكتنفها الغموض. ولم يمتلك سوتونغ القدرة على التنقل بين الأزمنة فحسب، بل أكسب زمن الرواية سلاسة ومرونة. وعلى الرغم من أن الرواية سرد بسيط لأحداث، إلا أنه يمكنك أن تستشف من بين السطور نوعاً من القهر والعجز فيما يتصل بالعيش والواقع، وأن الفرار بشكل عام قد لا يأتي بنتائج طيبة وليس حلاً يمكن اللجوء إليه، إلا أنه كان بالنسبة لتلك المجموعة من الأشخاص، خياراً لا مفر منه.

ولعلَّ الملمح الرئيس في إبداع سوتونغ هو الذاكرة المعبأة بالألم من حياةٍ لم تكن على هذا القدر من الراحة لمعظم الصينيين قبل انطلاقة الصين الاقتصادية الكبرى والتحول الهائل الذي أعقب وفاة ماو تسي تونغ وتولى دينغ شياو بينغ القيادة في السبعينيات من القرن العشرين المنصرم. وكما تظهر تلك الذاكرة المستندة على التاريخ في رواية «الفرار في عام ١٩٣٤»، فإنها تظهر كذلك في قصتيه المترجمتين كذلك في هذا الكتاب.. «جولة في منزلنا» و«يوميات شهر أغسطس».

يقول سوتونغ في رواية «الفرار من عام ١٩٣٤»: «ثمة وقت امتلأ كتاب مذكراتي بعام ١٩٣٤ كان هذا العام يطلق أشعة أرجوانية تحوم وتطوق تفكيري. كان عاماً بعيداً لن يعود مرة

أخرى، وبالنسبة لي كان كعمر شجرةٍ عتيقة، يمكنني أن أجلس عليها، وأستذكر الأحداث الكبيرة التي وقعت عام ١٩٣٤ وفي البداية، أرى تاريخ جدتي السيدة جيانغ يطفو أولاً»

والشجرةُ العتيقةُ تلك هي ما يمسُّها سوتونغ بقلمه فتتحول إلى شجرةٍ وارفةٍ ونضرة من إبداعٍ صيني، ربما يطابق في بعض صوره وأحداثه ما نعانيه في هذه المنطقة من العالم.

يارا المصري

الفرار في عام ١٩٣٤

لعلَّ والدي كان طفلاً أخرس. فصمته غطى منزلي بضبابٍ كثيفٍ لنحو نصف قرن. وخلال نصف القرن هذا ولدت وكبرت لأصبح عجوزاً. كانت أصول والدي من قرية فينغ يانغ شو تمتد لي، لعلَّني كنت طفلاً أخرس كذلك. فقد كنت صامتاً أيضاً. أنتمي إلى برج النمر، وقد غادرت منزلي إلى المدينة حينما كان عمري تسعةَ عشر عاماً، وعندما أعود بذاكرتي إلى أيام طفولتي الماضية، فلكم كنت أشبه نمراً صغيراً يتمدد أسفل إفريز منزل والدي، وجسدي كله يلمع بضياءٍ أزرق، متأملاً حجاب الضبابِ الذي كان يتكثف شيئاً فشيئاً ويطفو فوق عائلتي يوماً بعد يوم، وأسفل هذا الحجاب عاش ثمانية أفراد هم من تبقوا من عائلتنا.

في شتاء العام السابق كنت أقف تحت ضوء أحد مصابيح الشوارع في المدينة أتأمل ظلي. وأدركت أن هذا الأمر سيتحول إلى عادةٍ تنمو وتستمر. وكانت مصابيح المدينة دائماً تطلق ضوءاً أبيض هادئاً بلون الثلج. واكتشفت أن ظلي كان يتفشى بشكل صلف وعجيب على الرصيف الإسمنتي، كأعواد قصب وسط الرياح، في تلك اللحظة تتبعني الظل، فمددت ذراعي،

وأمسكت بعمود النور المعدني ذي مصباح النيون قوي الإضاءة. بعدها أدرت رأسي وتأملت الظل على الأرض مرة أخرى، فرأيت أنني وسط ليل المدينة الحالك قد رسمتُ صورةً لهارب.

تملكني نوع من الرعب الفطري جعلني أمسك برأسي وأفر هارباً. أنا أشبه والدي. كنت أقطع الطريق ركضاً وأعبر المدينة بليلها الشاحب، وظل والدي في الخلف يزأر ويتتبعني، كان هذا نوعاً من التتبع يتجاوز سكونَ الحالة. فهمت، أن الركض تلك المرة كان نوعاً من الفرار.

وأخذت بعين الاعتبار أن هذه التجربة العجيبة كانت على الدوام ذات علاقة بالذكريات. تذكرت أوقات مغربٍ كثيرة، كان والدي يقف فيها أمام سريري المعدني، تداعب يد وجهي، واليد الأخرى تضغط على مقدمة جبهتي الشاحبة، وعندما أعود بذاكرتي لأتأمل ظل ذاك الشخص الذي تغير، أرى أنني وبهذا الشكل وبعد مرور العديد من السنوات أصبح عمري ستةً وعشرين عاماً.

أنتم أصدقائي. دعوني أخبركم، أنا ابن والدي، اسمي ليس سوتونغ. لدي الكثير من العادات التي ورثتها عن والدي والتي كُشِف عنها الحجابُ في المدينة، عادات تشبه راية بيضاء حزينة أغرسها أمامكم. أحب أن أتأمل ظلي. وفي شتاء العام

الماضي بعد أن شربت برفقتكم النبيذَ الأبيض أسقطتُ زجاجةَ حبرٍ أحمر، ورسمت على الحائط أقاربي الثمانية. حتى أنني كتبت قصيدةً أفكر أن أدسها في كتاب التاريخ الذي تبقى من أيام طفولتي. كانت قصيدة اعترافية تعكس حالةً من الهذيان والغمغمة غير المفهومة. وتتخيل القصيدة الأيامَ السعيدةَ التي قضتها عائلتي في الماضي، وأتخيلها تمتد فوق خط الكارثة الأحمر القاتم لهذه القرابة. يوجد الكثير من البدايات والنهايات التي بدأت تظهر بالتناوب. وفي النهاية بكيت في ألم، وسكبت الحبر الأحمر بكل ما أوتيت من قوة على الورق، ومسحت تلك القصيدة بحيث لا يمكنك تمييز كلماتها. وأتذكر أنني كتبت أول جُمَلِها بألمٍ غير عادي:

كان منزلي الأول في فينغ يانغ شو غارقاً لسنواتٍ عديدة
هربنا إلى هنا
وكنا أسماكاً هائمة
وفقدنا طريقَ العودةِ إلى الأبد

عندما تفتح باب منزل والدي الآن، لن ترى سواه ووالدتي، بقية أقاربي الستة الآخرين ليسوا موجودين. فمازالوا في الخارج يهيمون في الوحل كالسمك الأسود. لم يصلوا إلى ذاك المنزل الخشبي بعد.

كان والدي يحب القش. وكانت تفوح منه طوال فصول

السنة الأربعة رائحة القش المنعشة الكثيفة القوية. وكانت رائحة القش المنعشة تخرج من أعماق تجاعيد بشرته. وكان الناس في الشارع دائماً يرونه في فصلي الربيع والخريف يحمل سلتين من القش عائداً من الضاحية، ويترنح حتى يدخل من بوابة المنزل الكبيرة. وكان هذا القش الطري حنطي اللون يُجمع ويُكَدَّس بين الغرفة الوسطى وبين غرفتي الصغيرة، وكان والدي يستلقي دائماً أعلى كومة القش، ويسب والدتي ذات الجسد الهزيل بصوت عال.

لا يمكنني أن أصف حبَّ شخصٍ للقش، بالضبط كما لا يمكنني أن أفسر المبادئ السماوية والعلاقات الإنسانية. وبالعودة إلى تاريخ عائلتي، فلعلَّها كانت تمتلك هذا النوع من القش في منزلها القديم، ولعلَّ أقاربي الثمانية كذلك كانوا يتجسدون من جديد أعلى كومة القش، ولهذا أحمل هذه الذكرى الخاصة. وعندما يكون والدي أمام كومة القش يمكنه أن يكون ساحراً. فيمسك بحزمةٍ منه ويتأملها أسفل خيوط الشمس الغاربة ويشم أنفاس الأقارب الذين فارقوا الحياة.

الجدة السيدة جيانغ، الجد تشين باو نيان، العجوز قو تزي، المرأة الصغيرة هوان تزي، ظهروا من بين القش.

لكنني لم أرَ هؤلاء الأقارب من قبل. لقد قلتُ من قبل لعلَّ

والدي كان طفلاً أخرس.

وحينما وددتُ التعرف على إحدى حلقات سلسة البشرية المتشعبة الكبيرة، امتلأ فـؤادي بحزن معسول، رغبت أن أكتشف أصل عائلتي، وقد أزعجت والدتي من قبل بسؤالها عن قصة أجدادي. لكن والدتي لا تدري، فهي ليست من قرية فينغ يانغ شو. قالت، «اذهب واسأله، انتظر حتى يسكر». فبعد أن يسكر والدي يكون هادئاً بشكل غير عادي، ودائماً يشارك والدتي السرير بعد أن يسكر. وفي ليالٍ كتلك تكون عينا والدي الحمراوان قليلاً مفعمةً بنظرةٍ بعيدةٍ وغامضة، فيمد ذراعه ويطوق والدتي، ويقرب شفتيه اللتين تعبقان برائحة الخمر من أذني، ويذكر أسماء هؤلاء الأقارب بهدوء: الجدة السيدة جيانغ، الجد تشين باو نيان، العجوز قو تزي، المرأة الصغيرة هوان تزي. حتى أنه يكرر قائلاً: «عام ١٩٣٤ هل تعلم؟» بعدها يقول لي بصوتٍ عالٍ، سنة ١٩٣٤ سنة كارثية.

سنة ١٩٣٤

هل تعلم؟

سنة ١٩٣٤ سنة كارثية.

ثمة وقت امتلأ كتاب مذكراتي بعام ١٩٣٤ كان هذا العام يطلق أشعة أرجوانية تحوم وتطوِّقُ تفكيري. كان عاماً بعيداً لن يعود مرة أخرى، وبالنسبة لي كان كعمر شجرةٍ عتيقة، يمكنني أن أجلس عليها، وأستذكر الأحداث الكبيرة التي وقعت عام ١٩٣٤ وفي البداية، أرى تاريخ جدتي السيدة جيانغ يطفو أولاً

كانت ساقا جدتي الطويلتان الهزيلتان مغروستين داخل حقل أرز موحل بارد وساكنتين. وهذه صورة لها علاقة ببداية الربيع والفلاحات. كانت الأوساخ تغطي وجهها، وعظام خديها بارزة، وقد أحنت رأسها لتسمع صوت الجنين في بطنها. أحست بأنها تشبه تلةً جرداء، وبعد أن اجتث الرجلُ كلَّ ما فيها زَرعَ أشجارَ أطفالٍ مرة تلو الأخرى. وعندما تسمع صوت الجنين يبدو وكأن رياحاً هبَّت عليها، وكأن رياحاً هبَّت على التلة الجرداء.

في منزلي القديم في قرية فينغ يانغ شو، يأتي الربيع مبكراً، وينساب الضوء الأبيض على المناطق الجبلية المتعرجة، ويدفئ قليلاً قليلاً مجموعة العاملين في حقل الأرز. كانت الجدة عاملة استثنائية لدى عائلة الثري تشين وين تشي. كانت العاملة تغرق طوال اليوم في حقول الأرز التي تبلغ مساحتها أكثر من ١٠ لي والتي تملكها عائلة تشين وين تشي، وتغرس

عشرة آلاف شتلة أرز على الأقل. وبين حين وآخر تشعر بوجود المنزل ذي القرميد الأسود أعلى المنحدر الرملي في الجهة الشمالية الشرقية، وكانت هناك مساحة صغيرة وراء ظهرها ترتفع وتنخفض بفعل الضوء الأسود. والظل الواقف في المنزل الأسود البعيد كان تشين وين تشي. وعبر منظار كان يرى السيدة جيانغ. في بداية ربيع ذلك العام كانت ترتدي غطاءً قماشياً أحمر اللون مستديراً يغطي صدرها وبطنها، يكشف عن ظهر نحيل يشبه ظهر رجل. وأعلى ظهرها انتشر ضباب دافئ ممتد، وكان المشهد من بعيد غائماً، مما جعل تشين وين تشي لا يتوقف عن تنظيف عدسة المنظار بكم سترته. كانت حركات العاملة جميلةً رشيقة، وتعتمد على ذراعيها وساقيها الطويلتين في غرس شتلات الأرز كحصانٍ مجنَّح يسبح في الفضاء، وكانت تغرس الشتلات في فرحٍ وانشراح صدر. أُعجِب تشين وين تشي بجهودها الدؤوبة في الحقل، وقضى نهاراً بأكمله يراقب كل حركة تقوم بها، وتعابير الوله تكسو وجهه الطويل الشاحب. وبعد مرور منتصف النهار خرجت السيدة جيانغ من الحقل، وهي ترمي سترتها على كتفها كيفما اتفق، ويداها تمسكان شتلتي أرزٍّ رطبتين، وتتمايل عابرة من بين مجموعة العاملين، وكان غطاء صدرها وبطنها الأحمر منتفخاً بقوة، وحتى ولو رأيتها من بعيد، فستعرف كما عرف

الثري تشين وين تشي كذلك أنها كانت حاملاً.

إن النساء في عائلتي كلهن ولودات. وفي عام ١٩٣٤ حملت جدتي مرة أخرى. حينها كان والدي يتوق للخروج إلى العالم، أما أنا فأنكب على شِقٍّ آخر من التاريخ وأتطلع نحوهم. هذا هو شكل سلسلة البشرية التي أتسلح بها.

أما بالنسبة لتصوراتي عن المعيشة في الأيام الماضية في القرية، فهي دائماً تتعلق بذلك المنزل ذي القرميد الأسود المنتصب هناك. وليس بالأمر المهم ما إذا كان المنزل لا يزال موجوداً أم لا، الأهم من ذلك أنه قد أصبح رمزاً للسكون، يظهر كلما ظهرت جدتي، أو يمكن القول إن المنزل ذا القرميد الأسود هو تفصيلة منحتني إياها جدتي، لتحفز تخيلاتي الجميلة.

وأخبرني جميع المُسنين الذين اسم عائلتهم تشين، أنها كانت امرأة قبيحة. ولم تكن ترتدي ذلك الغطاء القماشي الأحمر، ولم يكن لها صدر الفلاحات المكتنز المنتفخ أسفله.

تزوج جدي تشين باو نيان جدتي ذات الساقين الطويلتين في الثامنة عشرة من عمره. وعقدت مراسم الزفاف في اليوم الثالث من الشهر الأول القمري. وتجمع أهالي قرية فينغ يانغ شو في معبد تشين جيا وتناولوا ثلاثة قدور كبيرة من شحم الخنزير وعصيدة الفول. وجلس تشين باو نيان حول

القدور النحاسية كذلك، ووسط قلقه ونفاد صبره، تقدم هودج أحمر ببطء. اكتسى وجهه بحمرة، وأوقع صحن العصيدة وهو يهتف طرباً، «إنَّ لـ تشين باو نيان مكاناً يسكنه الآن!» ولهذا ووسط تهليل وصخب أهالي القرية خرجت جدتي من الهودج الأحمر. وسمعت السيدة جيانغ تهليل تشين باو نيان كذلك. وعندما أمسك تشين باو نيان يدها الخشنة المتعرقة متجهاً إلى داخل المعبد، اكتشف أن تلك الفتاة التي يحجب وجهها منديل أحمر أطول منه بمقدار شبر، وفي النهاية اتجهت عيناه ناحية قدميها، كانت قدماها داخل الحذاء الأحمر الذي ترتديه كبيرتين وقويتين، وبخطوات متباعدة مضطربة دخلت المعبد. حينها نمت داخل فؤاده عشبة ذيل كلب رمادية، وعندما كان راكعاً أمام التمثال ليُتم مراسم الزفاف، كان يكور أصابعه الخمسة، ويقرص يدها الممدودة ناحيته. وعندما كان يقوم بذلك كانت ملامحه هادئة، وكان مصغياً السمع إلى صوتها.

إلا أنها أصدرت أنيناً مبهماً من أعماق حنجرتها، وفي الوقت ذاته شم تشين باو نيان رائحة ماشية زنخة تفوح من جسدها.

كان هذا مشهداً من تاريخ عائلتي حدث قبل ستين عاماً، ويمكنني تذكره إلى الآن. ويقال إن جدي غادر المنزل للعمل

بعد اليوم السابع لزواجه. كان يحمل على كتفه شريحتي بامبو ملفوفتين جيداً، وخرج يترنح وقت الفجر من القرية. وطوال الطريق كان يلتهم بنهم ما في جعبته من بيضٍ مسلوق، حتى وصل إلى قرية ما تشياو.

رأت مجموعة من الحرفيين اليدويين في السوق الصباحي تشين باو نيان يأتي مسرعاً، وسحّاب بنطاله القماشي مفتوح، كاشفاً عن ثيابه الداخلية المزركشة، ويمشي دون خجل. فهتف أحدهم، «أغلق بوابتك يا تشين باو نيان». فقال تشين باو نيان إن الباب مفتوح على مصراعيه ويمكن لمن يحشر أنفه في شؤون غيره مثل كلب يحاول صيد الفئران أن يدخل بسهولة. ورمى قشر البيض فوق رأس ذلك الشخص، واندفع خارجاً بغضبٍ من القرية. ومن ذلك الوقت كلما يذكر أحدهم ما تشياو تشين باو نيان في قريةٍ يتذكر الجميع ما تركه من فنٍ شعبي.

وطوال الأيام السبعة التي كان فيها الباب موصداً كان الظلام الدامس يحيط بالمكان، وفي اليوم السابع فُتِحَ الباب، ووقفت العروس السيدة جيانغ أمام المدخل واتجهت ناحية القرية وهي تسكب الماء من إناءٍ خشبي. وازدحمت النساء كالدبابير أمام منزل جدي، وأحطن بها وهن يغمغمن. ورأين أن الشباك الجنوبي قد دقه تشين باو نيان اللعين بلوحٍ خشبي. كان منزل جدي معتماً رطباً. جلست السيدة جيانغ على حافة

السرير، تتأمل الجموع بعينين لامعتين. كانت رائحةُ الماشية الزنخة التي تفوح من جسدها قد عبَّقت الغرفةَ بكاملها.

كانت تخاف الكلام، ووضعت بطيش أحد أشغال البامبو بين ركبتيها وانهمكت في العمل. وبدا للنساء أن تلك القطعة هي الزوجة البامبو[1] التي صنعها لها تشين باو نيان، كانت الزوجة البامبو المكتنزة في البدء ممددة في زاوية السرير. وفجأة ابتسمت السيدة جيانغ للنساء، وعضَّت على شفتيها الغليظتين، وسحبت منها شريحة من البامبو، وكلما سحبت شريحة كلما تفككت الزوجة البامبو، لتنفرط بعدها وتتهاوى ببطءٍ على الأرض. كانت أصابعها العشرة نحيلة وصلبة، وتتقن العمل، وتركت أثراً طيباً لدى أهالي القرية منذ البداية.

«إنَّ زوجك حرفيٌّ جيد. حرفيٌّ جيد خصر بنطاله واسع، وتقع منه العملات النحاسية أينما ذهب». هكذا قالت نساء القرية لها.

جلست السيدة جيانغ على السرير وهي تعود بذاكرتها إلى ذلك الحرفيِّ الجيد. كانت يداه قد أصبحتا حادتين كسكين البامبو بفعل استخدامهما، وحينما كان يلمسها كانت تشعر بذلك النوع من الألم العميق، ويخطر في بالها أنها تشبه حزمة من شرائح البامبو التي يقطعها تشين باو نيان. يا نساء قرية فينغ يانغ شو اللعينات، ألا تعرفن أن تشين باو نيان قديس

يمكنه معرفة الغيب؟ لقد قال إن نساء القرية سيُقتلن بعد عشر سنوات، وإن الفتاة التي تزوجها من عائلة جيانغ ستكون نجمَ شؤمٍ يضيء تاريخ قرية فينغ يانغ شو.

لم يقرأ تشين باو نيان (ما يي شين شيانغ)[٢]. لكنه كان يملك حساسية مذهلة فيما يخص ملامح النساء، وهذا نابع من نوعٍ من المعرفة الغامضة وخبرة في الحياة. فكلما كان يصادف امرأة ذات وجه مستدير وكتفين مكتنزتين تتلألأ عيناه ويلاحقها بلا كلل، ثم يعود أدراجه مفعماً بالحماس. في الليلة الأولى من زواجه كان ضوء القمر منساباً كالماء على بيت جدي، وكان يتأمل وجهها ممتطياً إياها، ولا يتوقف عن التنهد بحسرة. كانت يده الخشنة تقطع ملامحها الناعسة. وتترك آثارَ جروحٍ على وجنتيها البارزتين.

كان الألم يوقظها دائماً، فقد كانت يده تضغط على وجهها وكأنها تميمة ثقيلة تتخلل أعماق جسدها. كانت تحاول بكل جهدها أن تبعده، إلا أنه كان يبقى ساكناً لا يتحرك، وكأنه مشعوذ دخل عالم السحر. بدت لها عينا ذلك الرجل عميقة، عميقة كسحاب متناثر تجمع ليشكل بحراً. وقال بصوت عميق:

«إنكِ نذيرُ شؤم».

وخلال الليالي السبع الحالكة تلك كرّر تشين باو نيان نبوءته.

ذهبتُ من قبل إلى ما كانت في السابق مدينةَ البامبو بجانب نهر اليانغستي، وسرت بمحاذاة سور المدينة القديم الآيل للسقوط أبحث عن آثار دكان تشين جي للبامبو. وقد اختفت من هذه المدينة الآن رائحة شرائح البامبو وأنفاس القرية المنعشة التي تملأ الجو. كنتُ أحمل حقيبة قماشية وأقف تحت ظل سور المدينة، وكان الضوء يشبه نبات الأراروط يلتف متهدلاً ومسحوباً على جانبي الطريق الجرانيتي والناس. أيها العجائز ذوو الوجوه الشاحبة، هل رأى أحد منكم جدي تشين باو نيان؟

عندما كان جدي يعمل في مدينة البامبو وصل إلى سمعه خبر حمل جدتي للمرة الثامنة. أخبره العامل الصغير الذي يذهب إلى القرية لجمع شرائح البامبو، أن زوجته حامل، وأن بطنها منتفخ. فأخذ تشين باو نيان نفساً عميقاً وكأن أسنانه توجعه وسأل، إلى أي حد بطنها منتفخ؟ فأشار العامل إلى دكانِ مجاورٍ لبيع زيت السمسم وقال، كبير كطاسةِ الزيت. فسأله تشين باو نيان، هل هي في الشهر الثامن؟ فرد العامل يجب أن تسأل نفسك هذا السؤال، فكل مرة تعود فيها تطلق طلقةً صائبة، كبندقية صغيرة لا تخطئ الهدف أبداً. في النهاية ابتسم تشين باو نيان ابتسامة غريبة، وتعجب مغمغاً من نشاط وحيوية تلك المرأة اللعينة.

تخيلتُ لحظةَ قلقٍ مر بها تشين باو نيان بسبب المرأة والحمل. كانت أشغال البامبو مضيئة بدماء السيدة جيانغ، وكانت كراسي البامبو والحصائر والسلال وألواح البامبو المعلقة على الجدار والمتدلية من العوارض والمكومة على الأرض قد اهتزت جميعها، وهتاف المرأة والطفل الخافت قد دمر أعصابه. هل ولادة العجوز قو تزي الوحيدة التي شهدها تشين باو نيان بأم عينيه ستتكرر مرة أخرى؟ كانت جدتي حينها أمَّاً لا تملك أية خبرة. استلقت على ظهرها أعلى كومة القش الذهبية في منزل جدي، وكان وجهها الشاحب المُصْفر رصيناً، وتقبض بيديها الاثنتين على حزمةٍ قش. كان تشين باو نين يستند على الباب، وعندما رأى حزمة القش في يديها وقد أصبحت تقطر ماءً أصفر اللون بفعل قبضتها، أحس برجفات خوف متواصلة تعتري جسده، وخارت قواه، أمَّا عينا السيدة جيانغ فقد كانت تتراقص داخلهما ألسنةٌ من اللهب، وكانت هذه الألسنة تحترق طوال عملية الوضع، إلى أن انزلق العجوز قو تزي على كومة القش. كان المشهد مهيباً ومؤثراً كغروب الشمس على نهر اليانغستي. ورأى تشين باو نيان بعينيه مجموعة فئران موجودة في المنزل منذ زمن وهي تقفز خارجة من كل زاوية في الغرفة، وتحيط بالقش المخضّب

بالدم الزنخ وتتراقص طرباً، وكان وجه امرأته يحمل ابتسامةً خفيفة، وألقت التحية باحترام على تلك الفئران الغامضة.

وفي عام ١٩٣٤ كان جدي في المدينة طوال الوقت يأكل ويشرب ويفسق ويلعب القمار، وكان اهتمامه مُنصبَّاً على كسب الجاه والثروة، ولم يعد إلى منزلي القديم في قرية فيينغ يانغ شو. وحينما وجدتُ آثار محل جدي في أحد الأزقة القديمة المتهدمة والتي عمرها مائة عام كان الليل بدأ يسدل أستاره، ومصابيح الشوارع الشاحبة انعكست أضواؤها مرة أخرى على شخص من قرية فينغ يانغ شو، نظرت حولي بارتباك، فذاك المنزل الخشبي يقبع في أعماق التاريخ بالفعل، هل يمكنني أن أجد آثار مدينة البامبو التي كان جدي يتسكع فيها قبل عشرين عاماً؟

ومن بين أقاربي الذين توفوا، كانت صورة العجوز قو تزي جامع البراز في صغره تحتل موضعاً يلفت الاهتمام في تاريخ عائلتنا. ففي عام ١٩٣٤ أشرق نور قو تزي فجأة. حينها كان عمره خمسةَ عشر عاماً، وكانت يداه طويلتين وساقاه كوالدته، وملامحه ذكية فطنة كقرد.

كان عجائز القرية يحبون تربية الكلاب. وعندما تكون الكلاب هادئة تخرج في مجموعاتٍ للتنزه، وفي طرق وأزقة

القرية المتعرجة تخلفُ برازاً أسود لامعاً. وطوال اليوم كان العجوز قو تزي يحمل جاروفاً ويتتبع مجموعات الكلاب، وينهمك في جمع البراز. وعلى الرغم من أن البراز يتوارى داخل الأعشاب الكثيفة، إلا أنه لا يتوارى عن عيني قو تزي الحادتين وقدرةِ شمِّه الحساسة.

كان هذا في بداية عام ١٩٣٤ قالت جدتي لقو تزي، عندما تملأ جاروفاً من البراز اذهب لمن يملكون حقولاً، حيث يمكنك أن تبيع جاروف براز بعملتين معدنيتين، وحيث يمكنهم أن يستخدموا البراز كسمادٍ للحقول. وبعد أن تجمع ما يكفي من النقود ستشتري لك والدتك حذاءً مطاطياً جديداً، وعندما يأتي الشتاء يمكن أن تدفئ قدميك الصغيرتين. تأمل قو تزي بشفقة قدميه الصغيرتين العاريتين، ورفع رأسه مبتسماً لوالدته التي تدير حجر الرحى وتجرش النخالة. واخترقت نظرة والدته فتحة حجر الرحى العميقة، وكانت تتقلب بألم تبعاً لحركة جرش النخالة. وشم قو تزي الرائحة الزكية الخفيفة لتلك النخالة الصفراء والسوداء. وفجأة تضخمت صورة الحذاء المطاطي في مخيلته، ولبرهة علّق جسده بفرح على حجر الرحى الذي تديره والدته، وهتف بصوتٍ عالٍ، «اطلبي من والدي أن يشتري لي حذاءً مطاطياً ويعود إلى المنزل» ورأت

السيدة جيانغ ابنها يدور كالخذروف على المطحنة، أما يدها التي تدير المطحنة فكانت لا تتوقف عن الحركة وكأن سحراً مسَّها. ووسط حيرتها ضربت ابنها على مؤخرته وهي تتمتم قائلة، «اذهب واجمع البراز، عندما تجمع البراز ستتمكن من الحصول على حذاءٍ مطاطي». «عندما يأتي الشتاء هل سأذهب لجمع البراز كذلك؟» سأل قو تزي. «ستذهب. عندما يسقط الثلج تصبح الأرض بيضاء، ويمكنك تمييز البراز من نظرةٍ واحدة».

كان الاستغراق في التخيلات حول الحذاء المطاطي قد جعلت قو تزي في عام ١٩٣٤ منهمكاً ومتفانياً في العمل. وقد تمرد على والدته للمرة الأولى. فهو لم يعط لها العملات المعدنية التي حصل عليها من بيعه البراز بل وضعها في صندوقٍ خشبي. وقد خبأ قو تزي الصندوق بخبث في شق بالجدار، مُتخلصاً من مجموعة من الفئران الغامضة. وأحياناً كان ينام حتى منتصف الليل ثم ينهض من فراشه المصنوع من القش، ويمشي على أطراف أصابعه مُتخطياً أجساد عائلته المستلقية يميناً ويساراً ليتحقق من وجود الصندوق الخشبي. وفي وسط الظلام كان وجهه الصغير يبدو غامضاً ساحراً، ولم يتمالك نفسه من هز كومة العملات المعدنية تلك التي أصدرت رنيناً هادئاً. وعندما يكون قو تزي في ذروةِ انفعاله كان

يتنهد تنهيدة طويلة كالعجائز، وتتزاحم داخل ذهنه الصور والأفكار. كانت عملات معدنية في صندوق خشبي تنعكسُ بضوئها الذهبي على هذا الفتى الريفي.

وبإلقاء نظرة على تاريخ عائلتي، فإنَّ كوارثَ عام ١٩٣٤ قد حطت كذلك على رأس العجوز قو تزي. ففي صباح أحد الأيام اختفى ذلك الصندوق الخشبي. وبعد أن نكش في شق الجدار بأظافره حتى جرحها أصبح كجروٍ مجنون. فجمع إخوته الصغار، ولوح لهم بالسوط وجلدهم حتى يعترفوا بمكان الصندوق. وساد في منزل جدي صوتُ بكاءٍ وعويلِ لأطفالٍ صغار، مما أرعب القرية كلها. وعندما وصل الخبر إلى جدتي عادت بسرعة إلى المنزل، لترى فعلته الشنيعة في جلد إخوته. وجعلت نظرته القاسية المتوحشة الرعشات تسري في جسدها. أَهذه تعويذة دسها تشين باو نيان في جسدها؟ وعلى الفور استدعى ذلك في بالها صفات شخص يختلط بها السلوك المشين. كان الأمر يشبه الصلة بين دوران الشمس والقمر. اتكأت مائلةً على الباب وهي تتأمل أطفالها، ومرة أخرى ارتابت في أنها شجرة، وجسدها عُشٌّ مُجَوَّف، يتمايلُ وسط عاصفةِ وجوهٍ ثمانية.

بعد فقدان الصندوق حجب منزلي ظِلٌّ حزين. كان قو

تزي يجلس طوال اليوم أعلى كومة القش الموجودة في زاوية المنزل ويراقب عائلته. وبدا وكأنه يسمع رنينَ العملاتِ المعدنية في إحدى الزوايا الخفية في المنزل. وشك بأن أفراد العائلة خبأوا الصندوقَ الخشبي. وقد شعرت السيدة جيانغ عدة مرات بنظرات ابنها التي تفحص المكان، وتتوقف بعنادٍ على وجهها الناعس، وكأن قبضة من الشوك توخزها.

«أَلن تذهب لجمع البراز؟»

«لا».

«أَلا تريد الحذاءَ المطاطي؟» فجأة انقضت عليه وقبضت على شعره وقالت له تعال وتحسس بطن والدتك في شهرها السابع وهي تحمل أخاك، أَتريد من والدتك ألا توفر له المال وتريد أن تشتري لك الحذاءَ المطاطي، اجمع قبضتك وصوبها بكل قوة إلى بطن والدتك.

تحسست يده بطنها المنتفخ طوال العام والذي يشبه الهوة السحيقة. ورأى وجهها المنفعل وقد تورد واكتسى بمسحة من اللون الأرجواني وهي تتجه ناحيته منقضة عليه، وقد ابتسمت ابتسامةً لم ير مثلها من قبل وهي تسحب يده وتقول قو تزي اضربني، اضرب أخاك وستشتري لك والدتك الحذاء المطاطي. هذا النوع من الإغراء المبدئي القريب جعله يقفز من مكانه،

ويلكم والدته في بطنها الصلب المنتفخ ثلاث مرات باكياً، أغلقت السيدة جيانغ عينيها، وتناهت ثلاثة أصداء حزينة من أعماق بطنها.

كان الجنين الذي لكمه قو تزي هو والدي.

بعدها سمعت ما حدث لصندوق قو تزي الخشبي، لم أنفك عن الشعور بالخيبة والكآبة بسبب تلك القصة الغريبة المثيرة. سمعتُ أنه في عام ١٩٣٥ تعرض الجنوب للفيضان. وقد غمرت المياه مسقط رأسي قرية فييِنغ يانغ شو بحيث تحولت إلى أرضٍ جرداء. وعندما كانت جدتي تجدف بطوف البامبو وتلوذ بالفرار، رأت صندوقاً خشبياً يطفو فجأة من أساس المنزل، وهناك سبع أو ثمان فئران خائرة القوى تحمي الصندوق وتعوم به ناحية الأعماق. ميزت السيدة جيانغ ذلك الصندوق وتلك الفئران. وتعجبت من قوة فئران منزل تشين العتيقة، والتي حركت صندوق قو تزي إلى أعماق أساس المنزل. وخطر ببالها أن هذه العملات المعدنية بالتأكيد ملطخة بالصدأ الأخضر، وحتى ولو غطست لتنتشلها فلن يمكنها أن تشم رائحة قو تزي ولا رائحة البران. أين ستذهب الفئران بالصندوق الخشبي الناجي يا تُرى.

لقد قلتُ لوالدي من قبل، إنني أحترم فئران منزل جدي

العجيبة. وأحب أيضاً الصبي ذا الخمسة عشر عاماً جامع البراز عمي قو تزي.

ولم ينس والدي طوال حياته اللكمات الثلاث التي تعرض لها وهو في رحم والدته. ولعلَّه كان يكره أخاه الأكبر قو تزي على الدوام. ومنذ شهر يناير إلى شهر أكتوبر من عام ١٩٣٤، كبر والدي وهو يحمل عبئاً ثقيلاً كبراعم بامبو تحت الأرض، مُتلهفاً للقفز من رحم والدته. ومع تغير وتقلب الفصول الأربعة، تحولت حقول أرز قرية فيينغ يانغ شو التي كانت مساحتها ٤٠٠ مو من الأخضر إلى الأصفر. إلى أن حل الخريف فتحول مشهد القرية إلى مساحةٍ من الأصفر الذهبي، تلتف حولها رياح ١٩٣٤ الدافئة التي تفوح من النباتات ذات الرائحة الكثيفة، والتي تستحق التأمل.

إن شيوع السلوك المعيب في مسقط رأسي في القرية ذلك الخريف لا يزال سراً حتى الآن. كان ذلك الفصل هو موسم الحصاد. وكانت الديوك تصيح في الفجر، والخنازير تتجمع في ساعات الليل المتأخرة. في الماضي كان أهالي قرية فيينغ يانغ شو لا يمارسون الحب في شهر أكتوبر ولكن ذاك الخريف كان هناك لغز ما. لعلَّ الرياح التي تهب قد أثارت الشهوة فيهم. لماذا ترك الرجال والنساء مناجلهم واختفوا داخل حقول الأرز،

قل لي من أي مكان هبت هذه الرياح بالضبط؟

سحبت جدتي جسدها الثقيل وجلست ذاهلة وسط الرياح. سمعت أصوات الرجال والنساء القادمة من أعماق الحقول المفعمة بسعادة الحياة تحيط بها وبجنينها بمجونٍ صاخب. كانت يدها تتحسس الجنين بلطف، واليد الأخرى مكورة على شكل قبضة تستند على شفتيها، وبسرعة اندفع البكاء الصامت من بين شقوق أصابعها كزهور سمسم تتفتح أكثر فأكثر، ومَن يسمعها كان يقف شعره رعباً. وقالوا إنَّ بكاء جدتي أشد من عفريتة المقابر، وكان يحمل معنى غامضاً حزيناً.

لا تزال الخلفية هي منحدر قرية فينغ يانغ شو الرملي الواقع في الجهة الشمالية والمنزل ذو القرميد الأسود أعلى المنحدر. وبهذا الشكل وقفت جدتي ووالدي على صورة التاريخ قبل أكثر من خمسين عاماً.

كانت الحالة المعنوية لتشين وين تشي مرتفعة خلال موسم الحصاد، وكان يبتلع كل يوم كمية كبيرة من الشعرية، متفوقاً على طائر كركي يحوم هائماً حول حقول الأرز خاصته والتي تبلغ مساحتها ستمائة مو. كان تشين وين تشي يقف في منزله ويتطلع من بعيد على المشهد الخريفي، وكان ذلك المنظار يتبع جدتي طوال الوقت، وخلال رياح شهر

أكتوبر وطقسه الجميل، شهد ولادة أبي كاملة. وكانت صورة جدتي المنعكسة في عدسات المنظار تشبه غزالة عجوزاً تقوم بحركات خفية. كان جسدها مغطى بمساحات حقول الأرز، وكله يلمع بلون أصفر، وكان تسير باتجاه الممر الترابي حيث تقبع كومة قش تشين باو نيان. بعدها استلقت بسكون أعلى كومة القش، وعضت على شعرها المنسدل، وبؤبؤا عينيها كشمسين صغيرتين تحترقان من الألم. كان هذا شهر أكتوبر برياحه الجنوبية وطقسه البديع. كانت المرةَ الأولى التي يرى فيها تشين وين تشي بأم عينيه امرأةً في المخاض. كان جسدها الهزيل المُسْمر قد أصبح مكتنزاً وجميلاً طوال عملية ولادتها، وكأنها زهرة أقحوان بري كبرت بفعل ضوء الشمس وتحترق بشغف.

وفي اللحظة التي انزلق فيها والدي على كومة القش انفجرت الدماء، وتناثرت في سماء قرية فينغ يانغ شو الخريفية. وهز صوت بكاء والدي القوي المنظار الذي يحمله في يديه، وبدأت حالة من الاضطراب في المنزل ذي القرميد الأسود. فبعد أن انكسرت عدستا المنظار، خارت قواه، وكانت ملامحه حزينة ويائسة، وعندما جاء الخادم ليسنده اكتشف أن بنطاله المصنوع من الساتان يلمع من البلل.

أدركتُ أن ذلك الشخص غريب الأطوار والذكي الذي يُدعى تشين وين تشي لا يتوقف عن الظهور في تاريخ عائلتي. حيث يُلقب نصف أهالي القرية باسم تشين، وقد سجلت شجرة عائلة تشين القرابة البعيدة بين عائلتي وبين تشين وين تشي. وأن يكون والد تشين باو نيان وتشين وين تشي من الجيل الخامس من أولاد العم أو من الجيل السادس من الأعمام والأبناء فهذا ليس مهماً، المهم هو أن عائلة تشين وين تشي كانت في القرن التاسع عشر غنية ومشهورة وتملك مساحات شاسعة من الأراضي، وعائلتنا كانت تسكن في كوخ وتعاني من الجوع والبرد. وقد قدم جدي أخته فينغ تزي لتشين وين تشي مقابل حقل أرز تبلغ مساحته عشرة مو. وخطر ببالي أن أخلاق أهالي القرية وبهذا الشكل قد فسدت خلال أجيال مرت بأحداث كبيرة وتقلبات متعددة. كانت فينغ تزي هذه تشبه ورقة شجر في غاية الجمال سقطت على أغصان شجرة عائلتنا العتيقة، لتتحول إلى طين. وسمعت أنها أكثر جداتي جمالاً، وقد كانت خليلة تشين وين تشي لمدة سنتين، وأنجبت له ثلاثة صبيان، وقد دفنهم تشين وين تشي في بستان البامبو. وقد رأى أحدهم هؤلاء الأولاد الذين دفنوا أحياء، فقد كانوا ظرفاء ومشوهين كذلك، كانت رؤوسهم ناعمة بشكل لا مثيل له، وشعرهم كثيفاً

لونه أصفر ذهبي لكنهم لا يبكون. وبعد أن تسرب الخبر عاشت القرية بكاملها أيامَ رعبٍ لبعض الوقت. وكانوا يسمعون صوت نحيبها المتقطع في بستان عائلة تشين، بعدها بدأت بجنون تهز أشجار البامبو، وتحت ضوء القمر في الليل الحالك تقوم بتخريب بستان العائلة الشاسع. في ذلك الوقت كان تشين باو نيان في السابعة عشرة من عمره ولم يكن قد تزوج بعد، فكان يقف على الطاحونة الحجرية خارج البستان وهو يرتجف من البرد، وكان على الدوام يحاول الوقوف بكل جهده وينادي على أخته الصغيرة يا فينغ تزي لا تخربي البامبو إياك وتخريب أشجار بامبو هذه العائلة. ولم يكن يجرؤ على إيقافها، كان يقف على الطاحونة الحجرية فحسب متحملاً البرد ويهتف فينغ تزي يا أختي العزيزة لا تخربي البامبو إنَّ أخاكِ الكبير خنزير وكلب وضع ضميره في البول توقفي عن تخريب البامبو. وهكذا فإن مواجتهما بهذا الشكل انتهت بموتها موتاً مفاجئاً. وسقطت فينغ تزي بهدوء على أرض البستان وهي تهز البامبو، وماتت بشكل غريب. وأذكر أن جثمانها كان أرجواني اللون، كورقة شجرة متساقطة دُست في ألبوم عائلتي وتشغل بال المرء. وقد رغب أهالي القرية قبل أكثر من خمسين عاماً بأن يحملوا نعشها مع تشين باو

نيان ويُدخلوه منزلَ تشين وين تشي، لكن تشين باو نيان دفن وجهه في منديل أبيض وانتحب بلا انقطاع، قائلاً، «لا يهم، فأنا أعلم أنها لن تكمل هذا العام، عاجلاً أم آجلاً ستموت. لقد قرأت لها الطالع. وأنا لا ألوم تشين وين تشي، ولا ألوم نفسي، فقد ماتت في حياةٍ ميتة». وبعد أكثر من خمسين عاماً اعتبرتُ جدتي فينغ تزي بقعةً شمسيةً أرجوانيةَ اللون أقبضُ عليها، فهي تشبه يراعة جميلة تطير أمامي بسرعة، فكيف يمكنني أن أقبض على ضوئها الأرجواني؟ وتجربة إنجابها تختلف عن جدتي السيدة جيانغ، تذكرت أجساد الأطفال الثلاثة المشوهين المدفونين في البستان، وتذكرت ما تعلمته سابقاً عن الوراثة ونظرية التناسل، وداهمني نوع من التصورات والشكوك جعلا عينيَّ ذاهلتين، ولم أكن قادراً على التعمق والنبش في تاريخ عائلتي.

أحتاج إلى ظهور تشين وين تشي مرة أخرى.

من بين أهالي القرية الذين يحملون لقب تشين كانت عائلة تشين وين تشي هي العائلة الثرية الوحيدة، وكان تشين وين تشي وأجيال العائلة من أجداد وأحفاد هم من يملكون طباعاً غريبة فقط، فكلٌّ منهم كان يحمل علامة مميزة يتشاركون فيها، هي أن حياتهم انتهت تقريباً في عمرٍ واحد،

فهم لم يتخطوا الأربعين عاماً. ويعتقد أهالي القرية أنَّ الوفاةَ المبكرة له ولأسلافه هي عقابٌ لهم على انغماسهم في الخمر والنساء. فقد احتكروا تقريباً فتيات القرية الجميلات طوال مائتي عام. كانت هاتيك الفتيات يدخلن منزل عائلة تشين الأسود المكون من خمسة طوابق وكأنهن ذباباتُ فرس جميلة تلسع أجساد رجال العائلة بحزن ويأس. وبعد أن يرتشفن دمهم الكئيب والمتعفن يفقدن جمالهن السابق، ثم يتزاحمن في غرفة الأخشاب يُقطَعنَ الأخشاب أو يُحمِّرَنَ الأرز، وعلى وجوههن تبقى للأبد علامة تدل على أنهن خليلات تشين وين تشي: شامة بلونٍ أسود وأحمر.

وبين حين وآخر تُصرَف إحدى الفتيات ذوات الشامة من منزل تشين، وتسير هائمة في منطقة قرية ما تشياو، وتطلق ابتسامة باهتة تغري بها حرفيي القرية. أما أهالي القرية فقد كانوا عندما تقع عيونهم على جميلة تحمل الشامة يحيطون بها، ويسألونها عن أخبار أهل عائلة تشين، ويسألونها عن جرة خزفية غامضة.

يجب أن أحدثكم عن جرة عائلة تشين وين تشي الخزفية.

لم أرَ وليس باستطاعتي أن أرى تلك الجرة الخزفية. لكنني أتخيل الآن منزل تشين وين تشي في عام ١٩٣٤ وأرى

تلك الجرة الخزفية الموضوعة أعلى مائدة طويلة في غرفة الضيوف. كان في داخل الجرة دواءُ اليأس الذي يهتم به أهالي قرية فينغ يانغ شو. في كتاب التاريخ غير الرسمي لمسقط رأسي (سجل البحر)، سُجِّل هذا عن الدواء:

«من مقتنيات العائلة الثمينة. ينبغي على مشعوذ من شرق الجبل أن يغلي دم الفتيات الصغيرات أو منيّ الفتيان ليكون فعَّالاً. ولا يُعرف استخدامه فيما يخص الأصحاء أو كمقوياتٍ لإطالة العمر».

وعلى الرغم من أن الفتيات ذوات الشامة لم تستطعن تقديم تفسير لهذا الدواء، إلا أن ما ظننه عنه داخل الجرة على وشك أن تُعرف حقيقته. ففي نهاية صيف وبداية خريف ذاك العام كان تشين وين تشي مذعوراً مضطرباً كنملٍ في قدرٍ ساخن، حتى أنه طرد خادمه وبقي بغرفة الخادم يتطلع فيها، بل وسرق بضعة سراويل مزركشة من على منشر الغسيل وخبأها في حضنه، ثم عاد إلى منزله وأوصد الباب منهمكاً في الدارسة والبحث. كان من ضمن السروايل سروال يخص العجوز قو تزي، وعندما رأى قو تزي أنَّ السروال اختفى، حسب أنَّ الرياحَ أخذته بعيداً. وبهذا أخذ صرة قماشية زرقاء مطبوعة ولفها حول خصره، وذهب لجمع براز الكلاب.

حمل قو تزي الجاروف طوال الطريق، إلى أن وصل الى منزل تشين وين تشي ذي القرميد الأسود.

لم يكن يدري أن هناك أحداً يراقبه من المنزل. وفجأة سمع قو تزي صوت رئيس الخدم لعائلة تشين وين تشي يهتف قائلاً: «قو تزي، تعال ساعدني في عمل هنا، وسأعطيك ما تريده» رفع قو تزي رأسه ونظر إلى ذلك المنزل الغارق في السواد مفكراً، «هل سآتي للعمل في الطاحونة؟» نعم بالضبط. تعال. قال رئيس الخدم مبتسماً. «هل ستعطيني ما أريده حقاً؟» بعد أن انتهى من كلامه ألقى قو تزي بالجاروف الذي يحتوي على براز الكلاب ودخل إلى منزل تشين وين تشي.

حدث هذا الأمر داخل صومعة الحبوب في الباحة الخلفية لمنزل تشين وين تشي. كانت تلك الصومعة ضخمة، وتحت أشعة شمس الظهيرة كانت تطلق رائحة فواحة. أدخله رئيس الخدم الصومعة وأغلقها عليه، وفجأة أحس قو تزي بالدوار، ذلك لأنه لم ير هذه الكمية من الحبوب من قبل. ورأى بشكل مُضبب أن بعضاً من رجال ونساء القرية لا يزالون جالسين بلهفة أعلى كومة الحبوب، ويمضغون كميات كبيرة من الحبوب الصلبة.

«الطاحونة؟ أين هي الطاحونة؟»

ربت رئيس الخدم على جبهة قو تزي، وأمال شفتيه بشكل عجيب، ثم قال، «هناك، لن تدير الطاحونة بل ستديرك هي».

بعدها دُفِع قو تزي إلى عمقِ الصومعة. أية طاحونة توجد هناك؟ لم يكن هناك سوى وين تشي الذي كان يجلس بوقار على كرسيٍّ عالٍ من الخشبِ الأحمر، وكان فتاتُ الحبوبِ الذهبية ينتشر على جسده بالكامل، وبين ركبيته جرة خزفية. ابتسم له تشين وين تشي ابتسامة حنونة، ورأى وجه قو تزي الصغير وقد امتزجت فيه ملامح تشين باو نيان والسيدة جيانغ بحيث كان وضوحها بسيطاً وظريفاً. سأله تشين وين تشي، «لماذا لا تأتي والدتك إلى الحقل هذه الأيام؟»

«لقد أنجبت أمي مرة أخرى».

«والدتك...» انحنى تشين وين تشي بجسده وفك فجأة الصرة القماشية التي تستر عورة قو تزي. فصرخ قو تزي بحدة واثباً، وفي تلك اللحظة رأى بوضوح الجرة الخزفية وقد وقعت على الأرض، وانساب منها سائلٌ عجيبٌ ذو رائحة عكرة. وعندما شم قو تزي هذه الرائحة داهمته رغبة قوية في التقيؤ، وقرفص ممسكاً الصرة القماشية الزرقاء بكلتا يديه، حينها أحس بيد تشين وين تشي الهزيلة تداعب خصره. استبد به القلق والحيرة في مواجهة أكثر شخصيات قرية فييِنغ يانغ

شو غرابة، وحاول البكاء ولكن دموعه خانته.

«ما الذي تريد فعله ما الذي تريد فعله؟»

في تلك اللحظة ملأت رائحة براز الكلاب المتجمعة على جسده المكان كالضباب. وشم رائحةَ البراز الكثيفة. كانت عيناه جاحظتين، ويرتجف في يده كأعشابٍ برية. وفي تلك اللحظة اندفع سائل الفتى المنوي سريعاً كينبوع في يد تشين وين تشي وانساب في الجرة الخزفية، انفجر قو تزي باكياً، وكان يبكي ويكرر صائحاً:

«إنني لست كلباً أريد حذاءً مطاطياً أعطني حذاءً مطاطياً مطاطياً مطاطياً مطاطياً مطاطياً».

وبالطبع فقد خرج العجوز قو تزي بعدها من منزل تشين وين حاملاً بين ذراعيه زوجاً من الأحذيةِ المطاطية.

أثناء عودته على المنحدرِ الرملي، رأى أشعة شمس الغروب الأرجوانية تنعكس على جاروف البراز خاصته، وكان دخان المطابخ يتصاعد من منازل القرية، وبين حين وآخر تظهر كلاب برية تعض بعضها بعضاً في الجهة الشمالية الغربية، وتنبح بلا توقف. كان قو تزي يحمل زوج الحذاء المطاطي ذاك ويركض بترنحٍ على المنحدر، ويشم رائحة براز الكلاب على جسده وهي تزداد كثافة شيئاً فشيئاً لدرجة أن الرائحة بدأت تخيفه.

في مساء ذلك اليوم مضت الجدة السيدة جيانغ طوال الطريق وهي تهتف باسمه إلى أن وصلت إلى أرض مقابر مقفرة، ورأت ابنها مستلقياً على ظهره وسط أعشاب كثيفة من نبات البطباط، محتضناً زوجاً من الأحذية المطاطية سوداء اللون التي نادراً ما تُرى في قرية فينغ يانغ شو. كان قو تزي نائماً، وجفناه يرتجفان بلا توقف وكأنهما مذعوران، وكانت تعابير وجهه تتغير آلاف المرات أثناء نومه. وإلى جانب رائحة البراز التي كانت تفوح من جسده فاحت رائحةُ منِيٍّ سائل. احتضنت قو تزي بذعر، وعندما نظرت إليه اكتشفت أنه بدا عجوزاً للغاية. وكان زوج الأحذية المطاطية التي يحتضنها ابنها إلى صدره، أشبه بمصيبة هبطت من السماء وحطَّت على عائلتها.

وفي عام ١٩٣٤ نُشِر خبرُ توريد قرية فينغ يانغ شو لعشرين شتلة من بامبو ماو إلى جميع أرجاء المدينة في صحيفة (شين باو) في شانغهاي. وفي العام ذاته، ازداد المشتغلون في هذه الحرفة بسرعة فائقة كبامبو غض مر على نموه ثلاثة أشهر. وترك نصف الرجال على الأقل أشغالهم في الحقل، وأمسكوا بسكاكين البامبو الكبيرة ومضوا يكسبون مالاً كثيراً. كانت أصوات تقطيع شرائح البامبو يتردد صداها

في كل منزل من منازل القرية، أما في حقول أرز تشين وين تشي البالغة مساحتها ثلاثمائة ماو فقد نما نبات الشيلم.

وغمرت منزلي القديم في القرية حالةٌ من القلق والضيق.

كان السبب في هذا الاضطراب هو بداية ثراء جدي تشين باو نيان بالمدينة. كان الناس الذين يقومون بنقل البامبو إلى المدينة يعودون قائلين، إن تشين باو نيان أصابه الثراء، وإن الأسرِّة والحصائر والسلال التي يصنعها من البامبو، حتى السلال والمقاعد الصغيرة، تُباعُ جميعها الآن بسعرٍ جيد، وكل أهالي المدينة يعرفون متجره. ويقولون أيضاً إنه قد بنى منزلاً خشبياً. وإنه يضع خواتم ذهبية في أصابع يديه اليمنى واليسرى ويذهب إلى المطعم ويتناول المكرونة، ويمارس الحب مع النساء وقبل رحيلهن يرمي لهن اللعين خاتماً من الذهب على السرير.

سمعت الجدة هذه الأخبار متأخرة عن الباقين. وكانت قد ذهبت إلى كل مكان بشفاه بيضاء تسأل الناس، كانت تقول، هل تعرفون إن كان المال الذي يكسبه تشين باو نيان يكفي ليشتري حقلاً مساحته ثلاثمئة مو؟ أما الناس فكانوا يحملون سوء نياتهم وينظرون شزراً إلى هذه المرأة القذرة النحيلة، ولا ينطقون حرفاً. وكانت السيدة جيانغ تقف ذاهلة للحظة، ثم

تسأل مرة أخرى، هل يكفي لشراء مائتي مو؟ فجأة يضحك أحدهم خفية، ثم يرد عليها، لقد قال تشين باو نيان إنه لن يعطيك قرشاً واحداً من الأموال التي يكسبها وينفقها.

«إذاً مائة مو يمكن دائماً شراؤها». قالت الجدة وهي تُحدث نفسها. التقطت أنفاسها، ومسحت بيديها الاثنتين على صدرها الذابل، وتوقفت عند بطنها المنتفخ. وبعد أن لامست أصابعها رأس والدي واندمجا، داعبت بحنان الجنين الموجود في بطنها. «تشين باو نيان أيها اللعين». تمتت قائلة، ثم أحنت رأسها لتستعيد الذكريات، وغرقت في أفكار متغيرة منسابة كالسحاب. واكتشف الناس أن ملامحها الذاوية قد أضحت في هذه اللحظة فاتنةً وبليدة.

وفي الحقيقة تخيلتها في هذه اللحظة امرأة معتوهة مخبولة. فقد تعقَّبت جميع الرجال الذين يذهبون إلى المدينة ويرون تشين باو نيان، وكانت تطلق نظرات متأججة إلى جيوب سراويلهم. «ماذا عن الأموال التي أرسلها تشين باو نيان؟» كان جانبا شفتيها يتلويان، ويداها مفتوحتين، وتتجول بين الرجال ذهاباً وإياباً بخفة، وعندما يصرفونها بأيديهم تشتعل في صدرها نيران من حزنٍ وغم.

وحتى ولادة أبي، لم تصلها الأموال القادمة من المدينة.

وشيئاً فشيئاً سار حرفيّو البامبو على خُطى تشين باو نيان وذهبوا إلى المدينة. كان عام ١٩٣٤ هو عام فرار حرفيي البامبو من قرية فينغ يانغ شو، وسمعت أنه في نهاية ذلك العام، انتشر جميع الحرفيين الذين أسسوا هذه الصنعة بالقرية في جميع أرجاء المدن أسفل حوض نهر اليانغستي.

وأعتقد أنه منذ ذلك الحين بدأ طريق قرية فينغ يانغ شو الطيني الكبير في الامتداد. وشهدت جدتي يعينيها هذا الطريق وهو يتغير من كونه ضيقاً حتى أصبح واسعاً، ومنذ أن كان مقفراً حتى أصبح مزدهراً. وكانت في خريف هذا العام تحمل في يدها منجلاً هلالياً وتقف للحراسة على جانبي الطريق، وعيناها تتفحصان بلا هدف هؤلاء السائرين بعيداً عن ديارهم. خلال ذلك العام عبر مائة وتسعة وثلاثون حرفيً بامبو جديداً حاملين حقائبهم من الطريق الطيني، وتركوا منازلهم القديمة في القرية. وفي تلك السنة كانت ذاكرة السيدة جيانغ تفوق الجميع، فتكاد تقريباً تذكر الأصوات والملامح الباسمة لكل شخص. ومن حينها أصبح الطريق الطيني الكبير شبيهاً بثعبان كوبرا ضخم يلتف حول ذكرياتها التي تخص مسقط رأسها.

ومن حينها أيضاً امتد الطريق الطيني الكبير ودخل

تاريخ عائلتي. فقد تجمع أفراد العائلة وأهالي القرية، ووطئوا بأقدامهم العارية مسقط رأس أجدادهم، مغادرين بسرعة إلى مدينةٍ غريبة. وبعد عشرات السنين سمعت بشكل مبهم أصوات هذه الأقدام الثائرة تخترق التاريخ، فأصبت بالحيرة والارتباك. يا نساء مسقط رأسي لماذا لم تستطعن الإبقاء على رجالكن وأن تعشن وتمتعن معهم؟ لا يجب على النساء أن يغرقن في هوة الشقاء كجدتي، ولا يجب أن تصبح قرية فييِنغ يانغ شو قريةً للنساء فقط.

كان الشخص التاسع والثلاثون بعد المائة هو تشين يو جين. وتذكر جدتي أنه كان الشخص الأخير. في ذلك الزمن كانت تقف على جانب الطريق. وكان تشين يو جين يركض بجنون على الطريق الطيني الكبير وتتبعه زوجته. وكان يطوق عنقه بشريحة مستديرة من البامبو. وكان يفر وفي خصره سكين بامبو، وامرأته تتبعه بشعر مشعث. وتطلق صوتَ زئيرٍ عجيب يشبه رياح الخريف وهي تركض خلفه بسرعة. ثم قبضت عليه. بعدها رأت السيدة جيانغ الزوجين يتصارعان صراعاً رهيباً على سكين البامبو تلك. ثم سمعت صوت المرأة المبحوح الأشبه بعاصفة وهي تنفس عمًّا في صدرها. قالت أنت أيها الأخرق مَن سيطبخ لك ويغسل لك ملابسك ويحممك

عندما تذهب إلى المدينة إن لم تكن تريد ذلك فأنا أريد، أفلت يدك وسأقطع لك أصابعك لتذهب بها إلى المدينة وتعمل في أشغال البامبو. كان هذا الصباح الذي تشاجر فيه الزوجان على سكين البامبو طويلاً بحيث يجعل المرء يشعر بالاختناق. كان وجه الرجل مفعماً بتعابير البؤس وسوء الحظ، أما المرأة فكان صدرها يغلي حقداً. تطلعت جدتي بوقار إلى ذلك المشهد على الطريق الطيني الكبير، وصدرها يفيضُ حزناً وغماً، وحينما حملت جدتي السلة المصنوعة من القش وهمّت بالعودة إلى المنزل سمعت صوت زئير متوحش يصدر عن تشين يو جين، والتفتت لترى بأم عينيها تفاصيل حادثة طعن تشين يو جين وقتله زوجته. ووسط النسمات الباردة التي تملأ الأرجاء، تدفق دم أحمر أرجواني كلسان لهب، وتناثر في المكان. وسقط جسد الزوجة الجميل محدثاً صوت رطمة قوية على أرض الطريق الطيني الكبير.

ولكن كيف للدماء في صباح ذلك اليوم أن تتحول إلى شكل زهرة لوتس؟ وتطايرت دماؤها المتفجرة في ضباب أول الخريف، وأطلقت رائحة حلوة.

قفزت جدتي إلى الطريق، وهي ترفع المنجل وخطت فوق بركة الدماء، وهي تتبع تشين يو جين الهارب. كان الطريق

أسفل قدميها يتقلب ويغوص في مواضع غائرة، وكانت عيناها جاحظتين تشتعلان غضباً، وتركض خلفه مترنحة، وكان الاسم التي تنادي به عليه في الحقيقة اسم أحد أفراد عائلتنا، فقد كان الاسم الذي سمعه العاملون في الحقل هو تشين باو نيان:

«تشين باو نيان.... لقد قتل شخصاً.... أمسكوا تشين باو نيان...

كنت أعلم أنه في ١٩٣٤ عبر مائة وتسعة وثلاثون حرفياً بسهولة من نهر اليانغستي إلى تلك المدن والقرى المزدهرة في الجنوب. وهؤلاء المائة والتسعة والثلاثون هم بالضبط مَن أشعلوا فتيل هذه الصناعة وبدأوا مهنةً جديدةً في المدن الجنوبية. ومن هنا ازدهرت الأشغال اليدوية للبامبو لقرية فيينغ يانغ شو وثارت كالأمواج. وفي عام ١٩٣٤ اشتهر محل جدي تشين باو نيان تشين جي لأشغال البامبو في المدينة لفترة من الزمن.

سمعت أن صفوة بارزة من شتى أشكال الغوغائيين كانوا يتجمعون في متجر جدي، وكانوا يملكون قوة تماثل قوة مواجهة أية كارثة طبيعية. كان هؤلاء الحرفيون الفاسدون يتجمعون عند سيادة تشين باو نيان، وكلٌ منهم يملك تفكيراً

حاداً وجسداً قوياً متيناً كتنين طوفان في البحر. كان تشين باو نيان يحبهم حباً جمّاً، وكان يعتقد بشكل مبهم بأن جمعه كومة قذرة من الحطب بمفرده، وإشعاله النار فيها، فإن ألسنة اللهب المتطايرة منها ستجعله يشعر بالشجاعة والفراغ والوحدة. وأصبح تشين باو نيان في خلال الفترة التي قضاها في المدينة عام ١٩٣٤ صاحب مهنةٍ بارعاً ولطيفاً لبقاً في التعامل مع الناس.

كان محله يقوم بالكثير من الأعمال التجارية المختلفة والعجيبة، كان يدير المحل ثمانية عشر شخصاً أياديهم جميعها ملوثة بأعمال فاسدة، ويتمتعون في سوق البامبو بقوة لا تقاوم.

وأثناء بحثي في تاريخ ازدهار متجر تشين جي أغرتني هذه الظلال السوداء الثمانية عشر بشدة. وعندما كنت بالقرب ممَّا تبقى من دكانه قمت بزيارة عجوز يُلقَّب بالأعمى الصغير. وقد توفي منذ ثلاث سنوات في حريق. ويقول الجيران إنه كان حين وفاته عجوزاً أعجف مترهلاً، وإن منزله الصغير كان مليئاً بأكوامٍ من أشغال البامبو العتيقة، وفي ليلةٍ حالكة اشتعلت النار في هذه الأشغال، ودُفن الأعمى الصغير تحت كومة طولها نصف متر من بقايا البامبو ورماده وكأنه

مومياء عتيقة. كان يمثل آخر مجد ساطع لدكان تشين جي.

أما فيما يتعلق بعلاقة جدي والأعمى الصغير فقد تركا لي العديد من الحكايات الطريفة.

يُقال إن حياته كانت غريبة شقية، فقد كان وليداً لقيطاً من أحد بيوت الدعارة في تشانغ نان. أمَّا كيف ترعرع وكبر فهو نفسه لا يدري. وحينما يحدق في أحدهم بعين واحدة فستكتشف وجود بقعة دم باهتة في مقلة عينه اليسرى. وكان الأعمى الصغير يتذكر دائماً السبب في وجود بقعة الدم تلك بفخر وبشكل حالم. حينما كان في الخامسة من عمره كان يتصارع مع كلب على قطعة من اللحم رماها أحدهم، فعض قطعة اللحم أولاً، ولكن مخالب الكلب الحادة غاصت بحنق داخل عينه. وبعدما جلس في عربته البالية تعرف على تشين باو نيان. وكل مرة يذكر حادثة الكلب وبقعة الدم، يشعر تشين باو نيان بالحزن والكآبة. وقد جمعت بينهما الذكريات المتماثلة عن الكلاب، ولهذا فكل يوم يخرج تشين باو نيان من المطعم في تشينغ نان كان يركب عربة الأعمى الصغير، وتحت ضوء المصباح الصغير اللامع يسترجعان حكايات كثيرة حول الكلاب والحياة. بعدها باع الأعمى الصغير عربته، وحمل على كتفيه صندوقاً من العرق الأبيض متجهاً إلى متجر

تشين جي لتعلم الصنعة. وبسرعة أصبح التلميذ المقرب لتشين باو نيان، وكان على حافة تاريخ عائلتنا أشبه بشجرةٍ خوخ برية تُزهر وحيدة.

كانت حادثة نهب ثلاثة قوارب لشحن الحبوب التي قام بها متجر تشين جي في شهر أغسطس من عام ١٩٣٤ من تخطيط الأعمى الصغير وتشين باو نيان. في هذا العام كان هناك عجز في الحبوب، وامتدت المجاعة حتى طالت المدن والقرى. ولكن لا أحد يدري لماذا يقوم متجر تشين جي المزدهر الوافر الدخل بنهب ثلاثة قوارب لشحن الأرز. بحثت في حياة تشين باو نيان والأعمى الصغير، وخمَّنت أنَّ السبب ربما يكون حلمهما بالطعام خلال طفولتهما التي لم يحصلا فيها على القدر الكافي منه. وبالنسبة للطعام وبالرغبة الفطرية في النهب والسلب فلعلك كنت ستحذو حذو متجر تشين جي في عام ١٩٣٤ وتقفز إلى القارب الذي يحمل الحبوب. ولعلكم كنتم ستشبهون مئات الحرفيين القادمين من القرى يتأبطون أكياس الحبوب وينتظرون على الرصيف إلى أن يحين منتصف الليل ويختفي القمر. وترون الأعمى الصغير العقل المدبر لسرقة الحبوب وأول شخص قفز إلى القارب، يمسك بأسنانه سكين بامبو مخروطية الشكل، وبقعة الدم في

عينه لامعة تخطف الأبصار، ويحمل كيس حبوبٍ ضخماً وهو يرقص بجنون، ثم ستصعدون أنتم أيضاً بصخبٍ إلى القارب. وفي لحظة ستنهبون كل ما في القارب من حبوب، وستدفعون بالمراكبي في عرض النهر وتجعلونه ينتحب باكياً. حدثت هذه الواقعة مع الكثير من مشاكل الحياة قبل نصف قرن، لذلك تبدو حقيقية وصادقة. وأعتقد أن هذا الأمر لا يعدو كونه علامة لتغير المجتمع، مطلقاً هالة من الضياء إمَّا لامعة أو معتمة. ويقال إنه بعد حادثة النهب تحولت المدينة تلقائياً إلى عصابة من الحرفيين. كانوا يحيطون بدكان تشين باو نيان، وما يميزهم هو سكين بامبو حادة مخروطية الشكل.

وما يستحق ذكره هو تلك السكين المخروطية الشكل، فقد صنعها الأعمى الصغير تحت ضوء القمر في الليلة التي سبقت عملية نهب قوارب الحبوب. كانت تشبه الخنجر، يمكن ثقبها وتعليقها في الخصر، أو دسها في السترة أو السروال. واختار الأعمى الصغير لصنع هذا السلاح السري البامبو الجاف القادم من مسقط رأسنا، وقد أراها لتشين باو نيان، (ما رأيك في هذا الشيء، سأصنع واحدة لكل رفيق، حتى تكون علامة كل أجيالنا القادمة هذه السكين). وفجأة أحب جدي تشين باو نيان سكين البامبو مخروطية الشكل. ومنذ ذلك الحين وجميع

أحفاده يمتلكون سكين بامبو حادة متقنة الصنع مخروطية الشكل. تشين باو نيان، تشين باو نيان، هل تريد آثار سكين البامبو المخروطية الشكل بالمدية المعلقة في خصرك أن تصل جميعها إلى نهاية العالم؟

في أحد الأيام دعا قو تزي شخصٌ ليس من أهالي القرية إلى أحراج البامبو في مدخل القرية. كان هذا الشخص جامعَ البامبو. وقال لقو تزي إن تشين باو نيان أرسل له شيئاً. وفي أحراج البامبو أخرج الشخص سكين بامبو مخروطية الشكل وأعطاها لقو تزي بوقار.

«لقد أرسل لك والدك هذه». قال ذلك الشخص.

«لي؟ وأمي؟» سأل قو تزي.

«لقد أرسلها لك، ويريد والدك أن تعلِّقها». قال ذلك الشخص.

في اللحظة التي أخذ فيها قو تزي السكين تحسس أنفاس المدية العجيبة والمفعمة بالإثارة أعلاها. وبدا أنه استطاع رؤية ملامح تشين باو نيان على حد سكين البامبو الرفيعة، كانت مضببة ولكنها كانت حادة للغاية. كانت السكين خفيفة، وتبث لمعاناً أخضر باهتاً، وتحت ضوء الشمس شرع قو تزي يتفحص ذلك الشيء الغامض، ثم جرح كف يده، وسمع صوت

تدفق الدم الخافت المتجمع، وداهمه شعور خفيف بالألم جعله يصرخ مندهشاً، بعدها أطلق ابتسامة ناحية أحراج البامبو. وخشي أن يرى أحد السكين، فخبأها في جاروف البراز بخبثٍ عائداً إلى المنزل.

وأمضى قو تزي تلك الليلة محدقاً في سكين والده تحت ضوء القمر، لم يغلبه النعاس. وقد هيَّجت سكين البامبو مخيلة الفتى الريفي قو تزي الخرقاء والتي لها علاقة بمنزله الطيني. فتخيل تلك المدينة التي يتجمع فيها حرفيو البامبو، وتخيل البيوت والنساء وعربات الركشا والبقالات هناك ودكان والده الذي يطلق بين حين وآخر أنات مفعمة بالحماس. وأخيراً استيقظت الجدة السيدة جيانغ. واتجهت ناحية حصيرة قو تزي، وتحسست جبينه بيدها التي تفوح منها رائحة الخشب المحترق. وشعرت بأن ابنها يشبه جرواً صغيراً مصاباً بالحمى فدفعته بنعومة أسفل ثدييها. كانت عيناه صافيتين ومفتوحتين على اتساعهما، ويلمع داخلهما ضوءٌ عجيبٌ مخروطي الشكل.

«أمي، أريد أن أذهب إلى المدينة مع أبي وأصبح حرفيَّ بامبو».

«يا قو تزي الطيب إن جبينك يشتعل».

«أمي، أريد أن أذهب إلى المدينة وأصبح حرفيَّ بامبو».

«يا قو تزي الطيب لا تهذِ بكلامٍ فتخيف والدتك، إنك لا تزال في الخامسة عشرة من عمرك ولا يمكنك أن تحمل منجل البامبو الكبير، كما أنك لم تتزوج وتنجب أطفالاً فكيف يمكنك أن تذهب إلى المدينة، عندما يذهب الناس الطيبون إلى هذا المكان اللعين يصبحون أشراراً حاقدين، إذا ذهبت فسيملأ الصديد أسفل قدميك وستصاب جبهتك بالقروح، ستجعل عظام تشين باو نيان الكريهة التي لا تقربها الكلاب ولا تلعقها القطط تتعفن هناك، لا أريدك أن تذهب هناك يا قو تزي».

كبحت السيدة جيانغ رغبتها الشديدة في النوم ومضت تثرثر، ثم مدت يدها وقطفت ورقة من النعناع المجفف المتدلي من الجدار وبللتها بلعابها ثم وضعتها على جبين قو تزي، ثم غطته مرة أخرى، وعادت إلى نومها.

وفي الحقيقة كانت هذه ليلة كارثية في تاريخ عائلتي. فقد كانت فئران منزل جدي العديدة متيقظة تحدق بعيون حُمْر، وكانت تثير ضجة وكأنها تجيب على كل أنة تصدر عن قو تزي. واهتز الكوخ الغارق في الظلام بفعل نوع من الإيقاع العميق. وكانت الحرارة الصادرة عن جسد قو تزي العاري تنبعث متصاعدة من اللحاف، وسمع صوت الفئران، كان

يبحث بتركيز عنها ولكنه لا يرى لها ظلاً، إلا أن قلبه الذي لم يتوقف عن الخفقان كان قد تواصل بالفعل مع تلك الفئران. وفي اللحظة التي هدأت فيها الفئران فجأة، نهض قو تزي من على الحصيرة كالسائرين نياماً، وحمل بتلقائية جاروف البراز في زاوية المنزل وفتح الباب الخشبي.

طريقُ هروبِ ليلي تنساب أعلاه خيوط ضوء القمر الخريفي.

طريقُ هروبِ ليلي يتلاشى في أعماق هوة عام ١٩٣٤

كان قو تزي يهرول على الطريق الطيني الكبير بقدمين عاريتين وكتفين مرفوعتين، واليراعات تحوم في جميع الأرجاء، والأعشاب الجافة وأوراق الشجر تتطاير قريبة من الأرض وسط رياح الليل، وفي حقول الأرز السوداء الممتدة على مدى البصر يحوم تيارٌ غامض، يرتفع بجسد قو تزي الرشيق كأنه يطفو بسمكة صغيرة ميتة. وكان ضوء القمر والماء ينسابان في تناغم. التفت قو تزي متطلعاً إلى قرية فينغ يانغ شو التي بدأت تنغمس في شحوبِ ليلةٍ من ليالي شهر سبتمبر. لا يُسمع نباح كلاب، لعلها اعتادت على خطوات قو تزي. ساد الصمت القرية، وكانت ساكنة حزينة، ولا يوجد سوى القليل من نبات الحلفا يتمايل مع الرياح أعلى سقف المنزل، كشعر

فتاة يتطاير، وتخيل بشكل غائم والدته وإخوته وأخواته وهم مستلقون على الفراش الكبير في المنزل، مستغرقون في النوم، وتنساب رائحة زفيرهم المفعمة برائحة السرمق الأبيض مختلطة في المنزل، وفجأة أبطأ قو تزي خطواته وانتحب كذئبٍ لبرهة، ثم انقطع الصوت فجأة. في هذه الليلة اكتشف العديد من أكوام براز الكلاب العجيبة في الطريق الطيني الكبير. كانت أكوام البراز منتشرة كنجوم السماء تداعب دموعه. وبهذا مضى قو تزي يسير في الطريق ويجمع البراز، ويضعه في سترته الصغيرة القماشية التي خلعها، حتى وصل إلى قرية ما تشياو، كانت السترة على وشك أن تُثقب بالفعل. وما أن أفلت قو تزي يده، حتى سقطت السترة القماشية على جسر القرية، ولم يلتفت قو تزي بعدها إلى براز الكلاب مرة أخرى.

في صباح اليوم التالي ما أن دفعت الجدة الباب حتى رأت حذاء قو تزي الأسود المطاطي على درجات السلم الحجرية. كانت بداية الصقيع الخريفي، وكان الحذاء مغطى ببلور يشبه الملح، وأسفل الحذاء بركة صغيرة من المياه. وكانت آثار أقدامه مطبوعة على الأرض من أمام منزلي وصولاً إلى الطريق الطيني الكبير، آثار أقدام متعرجة تعلو وتهبط، مهمومة قلقة، كانت آثار الأقدام العشرة تشبه حبات فول حزينة. سارت

الجدة جيانغ بمحاذاة آثار أقدامه وشعرها مشعث تهتف باسمه، إلى أن وصلت إلى قرية ما تشياو. وأشار أحدهم إلى صرة البراز الموجودة أعلى الجسر، فأمسكت الصرة المتجمدة وشرعت تنتحب بصوتٍ عالٍ. وألقت البراز على المحيطين بها، ثم عادت أدراجها وحيدة. وطوال الطريق شاهدت أكوام براز كثيرة تطلق ناحيتها لمعاناً أسودَ جميلاً. وكلما اشتد بكاؤها ازداد اللمعان الأسود جمالاً، بعدها حادت عن الطريق، وبدأت تتقيأ بلا انقطاع عندما شمت تلك الرائحة.

يمكنني أن ألقي قصيدة لشاعر مجهول من الجنوب. كانت هذه القصيدة تثير مشاعري وكأنك ضربت على وتر حساس. في العام الماضي عندما مرض والدي مرضاً شديداً استندت بظهري على سريره وحكيت له قصة أب وابن، وقد كانت القصيدة في أوج سحرها وسط رائحة الدواء في حجرة المرضى.

أنا ووالدي
نسير جنباً إلى جنب
وما بين توقفِ المطر الخريفي
وما سبقه من وابل المطر
كأن سنوات عديدة تفصل بينهما

كنا نسير عبر المطر والمطر
المتقطع
وكتفانا تستندان على بعضهما بعضاً بوضوح
ولكننا لم ننطق بحرف
كنا قد خرجنا من المنزل قبل قليل
لذلك لم ننطق بحرف
هذه هي الحياة التي عشناها طويلاً مع بعضنا بعضاً
وصنعناها
كان صوت قطرات المطر يشبه تكسر
غصن رقيق
احتضن والدي وأنا حناناً وحباً
لا يمكن وصفهما وسرنا بهدوء

كان والدي يفهم القصيدة. فقد كانت أذناه حساستين للغاية. وضحك فجأة عندما نظر إلى ظهري، فالتفت إليه واكتشفت عبر وجهه الهرِم ملامح بداية حياة أبناء وأحفاد عائلة تشين الفريدة: سعادة شفافة بالغة وشقاء ومرارة كالسحاب المتراكم. في حجرة المستشفى البيضاء شاهدت والدي حينما كان رضيعاً، وسمعت بوضوح كل ما ذكرته القصيدة من قطرات الأمطار وصوت الأغصان الرقيقة

المتكسرة عبر الزمن. في ذلك اليوم تحدث معي والدي بصوتٍ عالٍ منسلاً من حالته الخرساء. كنت أتأمله وكأنني أتأمل رضيعاً بالضبط وهكذا كنت أصلي ليعود والدي إلى الحياة من جديد.

هل ولد أبي يصاحبه سوء الطالع؟ أم أن لكمات عمي قو تزي هي ما جعلته ينزلق من رحم والدته مبكراً. كان أبي يحمل ست علامات أرجوانية اللون عندما ولد، وانزلق فوراً إلى كوارث عام ١٩٣٤

في عام ١٩٣٤ انتشرت عدوى الكوليرا في محيط سبعمائة لي حول قرية فينغ يانغ شو، وغطت القرية صورة قاتمة. وشعر والدي وهو في سلة البامبو العتيقة التي اسودَّ لونها بجراثيم النكبة في الجو. كانت كتفاه دائماً تتجهان ناحية السماء وكان يقبض عليهما وينفجر باكياً في مشهد مروع. ومنذ أن وُضع والدي في السلة أضحى كأرهو[٣] حزين يغني في أسى، وقد أصبح أفراد العائلة قلقين غاضبين بسبب هذا الصوت، وكان إخوته وأخواته يتجمعون حول تلك السلة ويدخلون في شجارات كثيرة. وبعد أن وضعت جدتي أصبحت تعيش في فوضى. كانت تغسل الملابس المتسخة بجانب البحيرة، وعندما وضعت الطست الخشبي الكبير ونظرت إلى

وليدها، اكتشفت أن هناك ظلاً غريباً شاذاً يتراقص على وجهه.

في اليوم الثامن بعد ولادته توقف والدي عن الرضاعة. كانت جدتي قلقة للغاية، وكان صدرها الممتلئ يحكها حتى جرحته، وشكَّت بأن حليب ثدييها قد تغير طعمه بسبب الوباء الذي طغى على القرية. وبحركة متقنة عصرت ثدييها في سلطانية كبيرة وأطعمته لكلب. بعدها حملت السلطانية وتبعت الكلب حتى وصلت إلى خارج القرية. بعدها أدركت تدريجياً أن رأس الكلب قد مال على صدره وسقط الكلب بجانب البحيرة. كان هذا الكلب هو كلب الحراسة للثري تشين وين تشي، كان ذا شعر ذهبي ناعم. وحاول الكلب جاهداً أن يلامس بخطمه ماء البحيرة إلا أنه لم يستطع. وسمعت السيدة جيانغ صوت نباحه الخفيض اليائس والمجنون وقد أصابه الألم الشديد. فكسرت السلطانية، وباضطراب ورعب زررت سترتها التي كانت دائماً مفتوحة، ولاذت بالفرار هاربة من الكلب الميت. وظنت بشكل خفي أن ثدييها قد أصبحا متمرسين بعد إرضاعها ثمانية أطفال، وأن الجينات المليئة بالحقد والفساد لا تزال إلى الآن قوية كالفولاذ لا تقاوم. فجأة ارتابت بأن يكون ثدياها هما مَن نشرا الوباء في القرية.

وحلمت الجدة ليلاً بأنها تحولت إلى امرأة الكوارث

الموجودة في الأساطير، جسدها بالكامل يطلق أبخرةً سامة، وكانت تمشي طوال الوقت تنشد أغاني حزينة، وتسير كأنها فوق السحاب، تهيم في أرجاء القرية. ولقد استمر هذا الحلم لوقت طويل للغاية، وفي الحلم كانت السيدة جيانغ تبكي وتضحك تموت ثم تعود للحياة من جديد. واستيقظ الأطفال جميعاً، وجلسوا في العتمة على فراش القش يحملقون في والدتهم. كانت السيدة جيانغ تحب الحلم. ولم تكن تريد أن تستيقظ. أكان الأطفال يعرفون ذلك أم لا؟

وكانت سلة والدي هادئة طوال الليل، وفي الوقت نفسه كان وجهه الصغير يكتسي بحمرة، ونبضه ضعيف كخيط عنكبوت، ونادى صوت بكائه الأخير الجدة السيدة جيانغ. كانت عيناها شاردتين وصافيتين، كانت لا تزال تحلم. ورفعت جسد الطفل الرضيع المحموم كنسمة رياح خفيفة تحيط بمنزلنا. وكانت الأم الحالمة تركض برشاقة وسط حقل الأرز الليلي. في تلك الليلة كانت النجوم والقمر لامعة فوق سماء المنزل، وتكثَّف الندى الليلي اللزج في الجو.

كان الندى الليلي صافياً حلواً، تساقط داخل فم الوليد شديد العطش. كان والدي يمتصه في نهم دون توقف. وقد منحته تلك القطرات حياة جديدة بعد أن كان في خطرٍ داهم، وانفجرت حياته مزدهرة من جديد.

كان والدي دائماً يعتقد هذا: أنه منذ خمسين عاماً مضت اخترعت جدتي أعجوبة إطعام الرضيع الندى الليلي. سيظل هذا الأمر أعجوبة إلى الأبد، حتى في تاريخ عائلتي الشاسع العجيب ستُسمَّى أعجوبة أيضاً. وقد جعلت هذه الأعجوبة والدي يشرب برضى لُب طبيعة القرية ويعبر السنة الكارثية.

وعندما تتقصَّى الأجيال اللاحقة مسيرة حياة والدي يمكنها أن تشاهد الهالة السوداء التي أحاطت بعام ١٩٣٤ لم يستطع الكثير من أهالي قريتي الهروب من الوباء وكأنهم أعشاب شيلم ممددة على الأرض. ورنَّت الأرواح الميتة منسابة في أعماق أرض القرية. كانت السماء والأرض كئيبتين قاتمتين، واتحدت الكائنات الحية والشياطين، كمجموعة هائلة من الطحالب تنساب متخبطة في المياه الراكدة، تتلاعب بها الرياح. وقد انضم أطفال الجدة الخمسة خلال ثلاثة أيام إلى فريق الأموات.

وكانت هذه هي المجموعة الأولى التي تموت من أجدادي.

كانوا يصطفون أعلى سرير القش، وقد اسودت وجوههم الخمسة الصغيرة بعد أن احترقت بعدوى الكوليرا وأصبحت كالفحم. كانت عيونهم تتأمل والدتهم بلا مبالاة كالبارحة. وخلال تلك الليلة أشعلت السيدة جيانغ البخور، وأكسب دخان البخور المتصاعد المتموج الأطفال الميتين رائحة عطرة

بسيطة. احتضنت جدتي ركبتيها وجلست على الأرض وهي تحرس جثامين أطفالها. وسمعت جرساً ضخماً في الظلام الدامس يقرع طوال الليل وينادي على الأطفال.

وحينما حل اليوم التالي وطلعت الشمس وتلاشت رائحة البخور من المنزل بدأت السيدة جيانغ في مراسم الدفن. واحتضنت الأطفال واحداً واحداً ووضعتهم في عربة يجرها ثور، مددتهم على ظهورهم، الأولاد أولاً ثم البنات، وغطت وجوههم بأوراق البامبو الخضراء الزمردية العطرة. ثم ربطت والدي وحملته على ظهرها وسحبت العربة وانطلقت.

كانت العربة التي تحمل الجثامين تتقدم ببطء على الطريق الطيني الكبير. وكان العشرات من الناس الذين يشيعون موتاهم ينتشرون من أول الطريق إلى آخره. وكان النحيب والعويل يرنان باضطراب، ويهز عام ١٩٣٤ وتعالت في الأرجاء أصواتُ الأغاني الحزينة التي تنشدها النساء، ومن بينهن كانت جدتي. كانت تغني بطريقة مختلفة، وكان إيقاع أغنيتها في كثير من المقاطع يشبه أغنية تقليدية لقومية الهاكا، وبدت غريبة وممتلئة بالتفاصيل. سحبت جدتي العربة وبحثت طويلاً طويلاً، ولم تجد مكاناً يصلح لمقبرة على الإطلاق. واكتشفت باندهاش أن جانبيّ الطريق الطيني الكبير

قد تحولا تقريبا إلى قمم عالية من المقابر، ولم يكن هناك مكان شاغر، وكانت المقابر الجديدة تشبه أكوام براز الكلاب وتمتد عبر قرية فيينغ يانغ شو.

بعد ذلك توقفت العربة بجانب إحدى البحيرات الكبيرة. استندت جدتي على ظهر الثور وجالت ببصرها. لم تكن تدري كيف خرجت من بين سيل المشيِّعين الضخم، وكانت البحيرة ساكنة بلون أخضر قاتم، والأعشاب البرية بجانبها نضرة ولا يوجد أثر لإنسان. وتهادى إلى سمعها من بعيد أصوات العويل تحيطها بشكل خفي من كل اتجاه، وبدت القرية شاسعة بلا حدود وسط هذه الأصوات التي تغمرها. وأربك النسيم الصباحي جدتي وقطع أفكارها، وشيئاً فشيئاً طفت في عينيها شعلتان خامدتان فارغتان. فأمسكت برسن الثور وسحبته ببطء باتجاه البحيرة. حينما وطأت قدماها العاريتان طمي البحيرة، جعلتها الإثارة الباردة تتأوه. وبدأت في حمل أطفالها الميتين واحداً واحداً باتجاه البحيرة، وبعد أن غاصت أجسادهم الخمسة في الماء ظهرت فقاقيع ملونة متلاحقة. تأملت السيدة جيانغ الفقاقيع وانزلقت قدماها خلالها شيئاً فشيئاً باتجاه أعماق البحيرة. وفي تلك اللحظة انفجر والدي المربوط على ظهرها في بكاءٍ مفاجئ، وأثّر فيها صوت بكائه

وكأنه قادم من الجنة. التفتت جدتي المغمور نصف جسدها في الماء إلى أبي وسألته: «ماذا بك، ماذا بك؟» تطلع أبي الرضيع إلى السماء وانفجر في بكاءٍ حادٍ بدون توقف. جلست جدتي فجأة في الماء بضعف، وقبضت على شعرها بشدة وهتفت ناحية الجنوب: تشين باو نيان تشين باو نيان عُد بسرعة.

كان تشين باو نيان في المدينة التي تبعد عن القرية ثمانمئة لي، يحتضن امرأة صغيرة تشبه القطة وتدعى هوان تزي ويتأمل الشارع خارج الدكان. حيث، كانت المدينة التي قضى فيها ثلاث أو أربع سنوات.

استعاد جدي تشين باو نيان حلمه. حلُم أنّ خمس سلالٍ من البامبو وقعت من فوق العارضة، واندفعت بقوة في حضنه محترقة. وقد أيقظه الاحتراق.

لم يكن يود أن يعود إلى المنزل. كان بعيداً عن وباء الكوليرا، بعيداً عن كوارث عام ١٩٣٤

سمعت أنه في الفترة التي انتشر فيها وباء الكوليرا ظهر مشعوذ يرتدي ملابس سوداء. وقد بسط أدواته في قرية ما تشياو لطرد الأرواح الشريرة من القرية. ولم يكف الناس عن المجيء من جميع الأماكن لرؤيته. حملت جدتي أبي وذهبت إلى القرية لترى بعينها هذا المشعوذ الذي يرتدي ملابس سوداء.

رأت رجلاً من الشمال يرتدي عباءة سوداء ويقف بين خنجر ومجموعة من الورق الأصفر[٤]، ورأت أن عينيه لامعتان، وأنه جسده بالكامل يفيض حماسة. وقد حاولت بقدر استطاعتها أن تتزاحم مع الناس في الأمام، وفقدت خلال ذلك فردة من شبشبها المصنوع من القش. بعدها توجهت ناحيته وهتفت قائلة:

«الكارثة، من أين أتت تلك الكارثة؟»

وغرق صوتها الأجش وسط ضجيج أصوات الناس. في ذلك اليوم طلب الكثير من أهالي قرية فيينغ يانغ شو من المشعوذ ذي العباءة السوداء أن يصلي إلى الرب، أملاً في أن يعطيه إشارة تعينهم على معرفة مصدر الوباء الذي استبد بالقرية.

كان المشعوذ يغني ويرقص، ويلوح بالخنجر البرونزي، وكان الخنجر يرتفع وينخفض. إلى أن سقط في النهاية على الأرض. ورأت السيدة جيانغ الدماء تقطر من حد الخنجر، وتشير إلى الناحية الجنوبية الغربية من الطريق الطيني الكبير. انظروا. وقفت الجموع على أطراف أصابعها، وتطلعت إلى الناحية الجنوبية الغربية. ورأت فقط منحدراً رملياً بعيداً يتصاعد منه ضباب كثيف أبيض. كان المشهد غائماً وساحراً. لم يكن في تلك الناحية سوى منزل مبني بالقرميد الأسود

يشبه وحشاً ضخماً جاثماً هناك، متربصاً بالجموع في قرية ما تشياو.

وحطم حديث المشعوذ ذي العباءة السوداء قرية ما تشياو:

في الناحية الجنوبية الغربية يوجد ينبوع شرير

يختبئ في جرة خزفية

إذا لم تفرغ تلك الجرة

فلن يكون للوباء نهاية

وعمت الفوضى بين أهالي قرية فييغ يانغ شو. وكانوا يتأملون المنزل ذا القرميد الأسود بحزن وكآبة، في تلك اللحظة جعلهم المشعوذ العجيب يعودون إلى وعيهم فجأة، فقد رأى جميع الناس من رجال ونساء عجائز وأطفال جراثيم الوباء تتصاعد من المنزل ذي القرميد الأسود، وكانت الجراثيم الأرجوانية تندفع ناحية قرية فييغ يانغ شو بقوة وتحيطها من الجهات الأربع. وعرفوا أن الينبوع الشرير المتدفق هو منبع الوباء.

تشين وين تشي

تشين وين تشي

تشين وين تشي

تشين وين تشي تشين وين تشي

ورأت الجدة السيدة جيانغ في السماء الخالية هيئة الجرة الخزفية البيضاء التي جعلها المشعوذ مرئية. وبدا وكأنها سمعت صوت غليان الينبوع الشرير داخل الجرة. وقد سمع أهالي قرية فييننغ يانغ شو عن جرة تشين وين تشي الخزفية ولكنهم لم يروها، والمشعوذ الغامض ذو العباءة السوداء هو مَن أعطاهم فكرة عن عظمة تلك الجرة. في ذلك اليوم مضت جدتي وأهالي القرية الذين أصابتهم اليقظة فجأة في الحديث عن الثري تشين وين تشي بلا انقطاع.

وهكذا رُفع الستار عن الألفي ضحية وكارثة الحريق الذي حل بصومعة حبوب تشين وين تشي. بعد تلك الحادثة اختفى المشعوذ ذو العباءة السوداء، ولم يعرف أحد أين ذهب. وفي المكان الذي بسط فيه أدواته، كانت هناك عباءة سوداء مبللة بالعرق معلقة على شجرة صفيراء يابان عتيقة تتمايل مع الريح.

ومنذ ذلك الحين وخلال العديد من السنوات أحبت جدتي أن تحكي للناس عن هذا الحريق الهائل الذي لا يمكن حدوثه ولو خلال مئات السنين.

تذكر أن صومعة الحبوب كان فيها تسعة أكوام من القمح. وكانت تشتعل بلون ذهبي حينما بدأ الحريق، وتطلق رائحة عبقة كثيفة. وكانت هذه الرائحة الزكية تجعل المرء

يذرف الدموع بلا توقف. أما تشين لي تشون الذي فقد أسرته فقد جن جنونه وسط النيران المشتعلة، ومضى يزحف ذهاباً وإياباً بين أكوام القمح. كان يمسح دموعه المنسابة على خديه ويقلد رقصة ساحرة في آنٍ واحد. وتجمع الناس ومضوا يدقون الأرض حثّاً له. كان منزل تشين وين تشي الأسود يغمره الرعب. ووقف أفراد العائلة من المنزل يستنجدون بالسماوات والأرض في ألم بالغ. أما تشين وين تشي ذو الجسد الهزيل كعود خشب فكان يستند على جاريتين كمالك حزين وسط رياح عاصفة، وكان ساكناً لا يتحرك. أما ذلك المنظار فقد تكسَّر، ولم يستطع رؤية وجوه الناس على الرغم من أنه زَمَّ أجفانه محاولاً التعرف عليهم. «كيف يمكنني ألا أرى وجوههم؟» وكانت صورة مشعلي الحريق في عينيه متموجة مضطربة كمياه النهر، وقد حولوا الصومعة إلى لون أحمر يوخز العينين. بعد ذلك لمح تشين وين تشي من بين مشعلي الحريق امرأة تحمل طفلاً. كان جسد تلك المرأة يلمع كإله النار، وقد حشرت نفسها في شق بين الرجال ووصلت إلى كومة قمح، وباستخدام حبل مغموس في زيت الصنوبر أشعلت النيران في آخر كومة حبوب.

«أنا أيضاً أشعلت النار في كومة حبوب. أنا أيضاً أشعلت النار». هكذا كانت جدتي تقول للناس في اليوم التالي. وقد

اشتاقت إلى ذلك المشعوذ ذي العباءة السوداء الذي غادر بسرعة. وقد كانت على يقين بأن الحريق الكبير هو ما أنهى وباء عام ١٩٣٤

وعندما كنت في علِّية المنزل أقرأ بجهد أعمال ماوتسي دونغ الكلاسيكية وكنت حينئذ في الثامنة عشرة من عمري، ربطت بين (دراسة حول ثورة الفلاحين في هونان) وبين إشعال أهالي قرية فيينغ يانغ شو النيران في صومعة حبوب عائلة تشين. ثم سرحت في جدتي التي كانت كإله النار في عام ١٩٣٤، وأعتقد أنها أشعلت فتيل الثورة على الثري تشين وين تشي، لتصبح صفحة براقة في تاريخ عائلتي. وأنا مثل جدتي تماماً، أشتاق إلى ذلك المشعوذ العظيم الغامض ذي العباءة السوداء. مَن هو؟ وأين يكون الآن يا تُرى؟

وبِركةُ الموتى التي كانت مشهورة لبعض الوقت في مسقط رأسي برزت بعد انتشار عدوى الكوليرا.

كانت بِركةُ الموتى تبعد عن منزل جدي مسافة ثلاثة لي. وكانت في الأصل بِركةً ينمو فيها الشيح الصيني، وكانت مجموعة الإوز الأبيض التي كان يربيها قو تزي عندما كان في الثامنة من عمره تعيش في البركة وتعوم في مرح. وعندما بحثت في سبب تسميتها ببركة الأموات غمرني شعور بالحزن

العميق. فقد قال كل عجائز القرية إن أطفال جدتي الخمسة هم أول مَن أُلقوا في تلك البركة. وكانوا لا يزالون يتذكرون جدتي و كيف كانت آثار عجلة عربتها بجانب البركة عميقة وكيف كانت موجودة طوال الوقت. بعدها أزال مشيعو الموتى هذه الآثار.

وكان في أعماق البركة ثمانية عشر حرفياً يدوياً تهيم أرواحهم في القرية. كانوا أرواحاً لم تمت بسلام، وكانت أجداثهم العارية مكومة داخل المياه، وكانت مساحة خضراء براقة تثير الرعب تجعل رائحة الموت ترتفع إلى أعالي السماء. ويُقال إن نبات الرِجْلَة قد نما نضراً على غير العادة بجانب بركة الأموات، الذي أصبح مكاناً جيداً يذهب إليه أهالي القرية لجمع الأعشاب البرية.

في صباح كل يوم كانت قطرات الندى تتمايل على نبات الرِجْلَة، ونساء القرية يحملن سلال البامبو ويمضين مسرعات باتجاه البركة. وبجانب شاطئها يبدأن معركة القتال على الأعشاب البرية. فقد جعل الوباء والمجاعة النساء شرسات عنيفات. وكن كل يوم تقريباً يتشاجرن ويتضاربن بجانب البركة. وقد جرحت جدتي بعضهن من قبل باستخدام منجل، ويوجد على جبينها جرح على شكل سن منشار. وقد كان ذلك الجرح يطلق طوال حياتها الطويلة ضوءاً مؤثراً استثنائياً،

ويخلق نظرتها للعالم. وقد تخيلت أن نساء قرية فيينغ يانغ شو قد تحولن جميعاً في عام ١٩٣٤ إلى وحوش ضارية، ولكن بعد مرور العديد من السنوات ألَم يتجمعن على مدخل القرية ويتشمسن، دافئات وعجائز، ويعدن بذكرياتهن إلى عام ١٩٣٤؟ كانت علامات الجروح على وجوههن تشبه الأختام تؤثر في أعماق فؤاد المرء، وتجعل الأجيال اللاحقة تنظر إلى جداتها نظرةً مفعمةً بالمهابة والاحترام.

ورأيت جدتي تحمل أبي الرضيع وتركض في أمطار وعواصف عام ١٩٣٤، وعلامة الجرح التي تشبه سن المنشار تلمع بضوءٍ زاهٍ. كانت دائماً تظهر أمام عيني صورة لها علاقة بجدتي وبِرْكة الأموات، ولكن لم يكن باستطاعتي تخيل الألم الغريب الذي اختبرته جدتي عندما كانت تأتي إلى البِرْكة.

يا جدتي كيف يمكنك أن تأتي إلى جانب بِرْكة الأموات لتتأملي الجثث؟

لقد دفنت المياه الراكدة السوداء أطفالك الصغار وثمانية عشر حرفيّاً متشرداً. وقد التهم الناس والكلاب الأعشاب البرية بجانب البِرْكة. وحينما كانت تشم رائحة الموت الحلوة تطلق رجفة سعيدة. كان هذا اليوم في أواخر الخريف، وسمعتِ صوت الرعد الخفي يدوي في السماء. وكانت سلتك المهترئة المصنوعة من البامبو موضوعة على الأرض ترتجف في رعب

متنبئة بالكارثة التي على وشك الوقوع. في الحقيقة كانت جدتي تنتظر المطر. كان نبات الرِجْلَة يثب بجانب البِرْكة نضراً بعد سقوط المطر. وفي تلك اللحظة ظهر ذلك الهودج الأحمر على الممر الترابي. كان يندفع كطائر محلقاً باتجاه البِرْكة. وكانت وجوه الأشخاص الأربعة الذين يحملون الهودج تشع بابتسامة. أنزلوا الهودج واتجهوا ناحية جدتي، وبمهارة ورشاقة قاموا بحملها.

«اصعدي إلى الهودج أيتها المرأة القبيحة». كانت جدتي تصرخ بذعر وتحاول الإفلات من أيدي الرجال الأربعة، صرخت قائلة: أنتم أشخاص أم عفاريت؟ ضحك الرجال وحملوها وكأنهم يحملون مجموعة من الأخشاب الجافة وأدخلوها إلى الهودج.

كان داخل الهودج ملوناً بالأحمر القاتم. وشعرت أنها اصطدمت بجسد صلب رطب. وداخل الهودج كانت تنتشر رائحة غبار عفنة وصوت زفير رجل ضعيف، وعندما رفعت رأسها رأت تشين وين تشي. كان يتراقص بجنون على وجهه الشاحب قبسٌ من الوهج. أمسك تشين وين تشي بحذر كتفي السيدة جيانغ اللتين تشبهان لوحين خشبيين وقال: «تشين باو نيان لن يعود فلتكوني لي». صرخت بحدة وأمسكت خديه بيديها الاثنتين، حتى لا تجعل ذلك الرأس الثقيل يتهدل ساقطاً على

ثدييها. سمعت صوت قلبه يتمايل داخل صدره الناعم الجاف، ضعيفاً واهناً كورقة شجرة وسط الريح. انغرزت أصابعها العشرة المبللة بالوحل في جسده وانفجرت في مواء كقطة برية. انساب دمه الأسود على يدها، فغمغم قائلاً: «اذهبي معي لأضع على وجهك شامة». اهتز الهودج الأحمر بكل قوة، وشيئاً فشيئاً غرقت جدتي الضعيفة وسط ضباب أسود وأمواج حمراء مغشياً عليها. وسمع الرجال الأربعة الذين يقفون خارج الهودج صوتاً ضعيفاً:

«أريد أن أنتظر هطول الأمطار لأجمع الأعشاب البرية».

وأدركت بشكل ما أنها أُغرِقت في الماء، لكنها لم تفتح عينيها. وكان جسدها المنهك يطفو كريشة إوزة. وتناهى إلى سمعها أيضاً صوت الرعد الخفي، لماذا لم يهطل المطر بعد؟ وحينما حل المغرب فتحت عينيها. واكتشفت أنها في بِرْكة الأموات. وكانت رائحة الأموات المتعفنة تلتصق بكثافة على جسدها نصف العاري. وقد تجمعت هذه الأجساد المألوفة أو الغريبة في وضعيات عجيبة قرب قدميها، وكانت أجسادهم الأرجوانية اللون تشع في مواجهة شمس أواخر الخريف الغاربة. كانت هناك مجموعة من الفئران تعوم ذهاباً وإياباً في البِرْكة، وتتقافز في رعب أمام صدرها. سبحت السيدة جيانغ مذعورة متجاوزة الجثث التي كانت على وشك التعفن

جثةً وراء الأخرى. وفكرت لماذا لم يهطل المطر إلى الآن؟ وعلى الأرجح لن يهطل المطر لأن الشمس قد ظهرت وقت المغيب. كانت خيوط شمس الغروب الخفيفة الحادة تنساب في الخلاء وتوخز عينيها. رفعت يديها الموحلتين وغطت وجهها. لم تكن خائفة على الإطلاق من الأموات في البِرْكة، وخطر ببالها أنها تحولت إلى شبح.

وحينما تسلقت طريقها إلى شاطئ البِرْكة رأت أن ثمة شيئاً ما موضوع في سلتها. وما أن فتحتها حتى شرعت في بكاء حاد. كان كيساً من الأرز المقشور الأبيض.

مدت يدها وغرفت قليلاً من الأرز ودسته في فمها، ومضغته بسرعة. كانت تقول لنفسها إن الرب هو من أعطاني هذا الكيس، وكانت الابتسامة تعلو وجهها طوال الطريق وهي تحتضن السلة وتطير عائدة إلى المنزل.

واكتشفتُ الرابطة الوثيقة التي تربط بين بِرْكة الأموات وبين جدتي، وتيقنت من ظل الموت المصيري الذي امتد فوق عائلتنا. كان الموت أشبه بسقف منزل مقوس لونه أزرق داكن، يمتد من المنزل القديم في القرية إلى المدينة الصغيرة في الجنوب ويغطي أقارب جدتي.

كانت هناك كارثة هائلة تتبع عائلتي، جعلتي أشعر بالحزن والكآبة.

في اليوم التاسع من الشهر العاشر القمري عام ١٩٣٤ وصل العجوز قو تزي إلى المدينة. كان قد قطع مسافة تسعمائة ميل بقدمين عاريتين، ووقف بوجه متسخ وبشعر طويل متهدل على كتفيه أمام دكان جدي تشين باو نيان لأشغال البامبو.

شاهد الحرفيون صبياً يشبه المتسولين يمد رأسه ويدخل الباب مرتجفاً، وانتشرت مع دخوله رائحة العرق الكريهة وبراز الكلاب. مد يداً باتجاه الحرفيين، فظنوا أنه يريد مالاً، ولكن الصبي أراح قبضة يده، وداخلها كان ثمة سكين بامبو مخروطية الشكل.

«أبحث عن أبي». قال قو تزي. بعد أن انتهى من جملته أمسك بالباب ثم سقط. كانت شفتاه منفرجتين في وهن، لا يمكنك أن تخمن ما إذا كان يريد أن يضحك أم يبكي. وقد أحدث بِرْكة من البول حين إمساكه بالباب، اندفع البول بلونٍ أحمر داخل دكان والده، وانساب تحت أقدام العاملين.

بعدها تذكر قو تزي أن الأعمى الصغير كان أول شخص يندفع ناحيته ويحمله في ذلك اليوم. ولم يتوقف الأعمى الصغير عن إطلاق صرخات تعجب حينما شم رائحته. كان قو تزي متشبثاً باسترخاء في حضن الأعمى الصغير، ويتأمله عبر دموع عينيه، وأغرته عين الأعمى الصغير المشعة والتي تحمل بقعة غامضة وبعيدة. فتح قو تزي ذراعيه وتعلق في

رقبة الأعمى الصغير وزفر زفرة طويلة، ثم غطَّ في نوم عميق.

يقولون إن قو تزي في بداية وصوله إلى دكان والده نام يومين وليلتين متواصلتين. وفي اليوم الثالث حمله تشين باو نيان ورماه ثلاث مرات على اللحاف القطني إلى أن استيقظ. كانت الجملة التي تفوه بها حالما استيقظ عجيبة، (أين جاروف البراز؟) وبحث فترة في العلَية الصغيرة، ثم سأل تشين باو نيان. «ماذا عن والدتي؟ أين هي والدتي؟» وقف تشين باو نيان ذاهلاً، بعدها صفعه على وجهه قائلاً. «ألم تستيقظ بعد؟» أمسك قو تزي وجهه متأملاً والده. لقد جاء إلى المدينة. وبهذه الطريقة بدأت حياته فيها.

لم يمنحه تشين باو نيان الفرصة ليتعلم مهنةَ أشغال البامبو. وسحبه إلى جرة أرز من تلك الجرار التي توجد في المدينة والتقط من داخلها جاروفاً من البامبو وأعطاه له: قو تزي يجب عليك أن تغسل مقدار عشرة جواريف من الأرز وتسلقه إذا أردت أن تذهب إلى المدينة لتناول الطعام كيفما شئت. من غير المسموح أن تسرق سكين البامبو خاصتي مرة أخرى، انتظر إلى أن تبلغ الثامنة عشرة من عمرك وسأعلمك كل أسرار المهنة التي عملت بها طوال أحد عشر عاماً. إذا واصلت سرقة هذا وذاك فسيضربك والدك إلى أن تبلغ الثامنة عشرة.

وهكذا كان قو تزي يجلس عند الباب الخلفي للدكان يحرس قدراً نحاسياً كبيراً من الأرز المسلوق. وكان يقبض في يديه دائماً شريحة من البامبو صفراء اللون، ويطلق العنان لخياله، ونظرته خامدة مطفأة، ويرتدي مريلة المطبخ المزيتة التي تخص تشين باو نيان. كانت المدينة في خريف عام ١٩٣٤ مغطاة بضباب أبيض، وعلى الرغم من أن الناس والبيوت والمداخن كانت قريبة من قو تزي إلا أنها كانت تلوح وتختفي داخل الضباب. كان قو تزي يقطع الشريحة التي يحملها في يديه ويرميها عند الباب الخلفي للدكان. حينها رأى فتاة تقف على درجات سلم دكان الزيت المقابل له وتتطلع ناحيته. كانت ترتدي تشيباو أزرق لامعاً، وتقف واضعة يديها على خصرها. ولا يمكنك أن تحدد ما إذا كانت امرأة أم فتاة، فقد كانت صغيرة ولكنها ممتلئة، وكانت ملامحها مغناجة لكنها طفولية. وهكذا ظهرت المرأة الصغيرة هوان تزي في تاريخ عائلتي للمرة الأولى. ومن المؤكد أنها ظهرت أمام قو تزي، يفصل بينهما شارع المدينة الرطب المبلل وقدر نحاسي كبير. وأعتقد أن هذا نوع من المعنى التاريخي الملموس، فقد كان من المُقدَّر لها أن تصبح زائراً استثنائياً لعائلتي، لترتبط بنا بعلاقة أبدية.

«هل أنت قو تزي ابن تشين باو نيان؟»

«هل حملت والدتك مرة أخرى؟» فجأة عبرت المرأة الصغيرة هوان تزي الشارع وأحاطت بالقِدر النحاسي، وبدأ النسيم الذي كان يدور أسفل التشيباو الأزرق يتمايل في مخيلتي. وطأ حذاؤها الأبيض شرائح البامبو المقطعة على الأرض، وأصدرت صوتاً ناعماً. تأمل قو تزي باهتمام شديد الحذاء الأبيض وشرائح البامبو المقطعة، وكما هي عادة أهل قرية فينغ يانغ شو اندفع دمه متصاعداً إلى رأسه، وبيد غطى سرواله الداخلي المصنوع من القماش الخشن وباليد الأخرى أزاح حذاءها الأبيض.

«لا تكسري شرائح البامبو إياك وأن تكسري شرائح البامبو».

«والدتك، هل حملت مرة أخرى؟» أزاحت هوان تزي حذاءها الأبيض، ووضعت يدها على جبهة قو تزي التي تشبه القنفذ. وارتجف جسده الذي يبلغ خمسة عشر عاماً تحت يدها كقشة. وعبر هذه اليد تعرف على النساء في هذا العالم. أغمض عينيه وتحت التأثير الذي أحس به بسببها تذكر والدته التي تركها في القرية. قال قو تزي: «إن والدتي حامل وعلى وشك الإنجاب». وانتفخ أمام عينيه بطن والدته، ذلك البطن الذي لكمه عدة لكمات على وشك أن ينجب رضيعاً. وبعينين مرتعشتين

تفحص قو تزي بطن هوان تزي التي يغطيها التشيباو الأزرق، وأحس بأنه ناعم لطيف مخبأةٌ فيه وردة جميلة. هل كانت هوان تزي حاملاً؟

كانت تجارة تشين باو نيان في أوج ازدهارها حينما بدأ قو تزي حياته في المدينة. كل يوم كانت تتجمع أكوام من أشغال البامبو، وتأتي عربات شحن ضخمة تحملها إلى رصيف النهر أو محطة القطار. وكان قو تزي يتسلل من أمام القِدر الكبير إلى الدكان، ممسكاً بالشباك المزخرف ومستمتعاً بمشاهدة تلك العربات. ورأى تشين باو نيان يحوم بين أشغال البامبو أمام باب الدكان كسمكة، ولاح وجهه كلون البامبو الأخضر الباهت. وعبر الشباك المزخرف بدا تشين باو نيان في حالته المنهكة.

واكتشف قو تزي أن ساقيه وقدميه القصيرتين الخشنتين والجزء العلوي من جسده الذي كان في مرحلة النمو تجعل أي شخص ينظر إليه يعرف على الفور أنه من أهل قرية فيينغ يانغ شو، أما وجه تشين باو نيان الأسمر فقد غيرت المدينة ملامحه، فقد بدا حيوياً متحمساً ولكن يشوبه قليلٌ من تعب الرجال وإرهاقهم. وأدرك قو تزي أن والده مدخنة يتصاعد دخانها في المدينة، ولكن والدته لا ترى تلك المدخنة.

وإلى الآن لا يزال جميع الحرفيين الذين قابلتهم يشعرون

بالتأثر بسبب حادثة سرقة قو تزي لسكين البامبو. وقالوا إن قو تزي هذا كانت عيناه تضيئان ما أن يرى سكين البامبو، وقد كان مغرماً بسكين البامبو الكبيرة العتيقة التي تخص تشين باو نيان. وقد كان تشين باو نيان يستعيد السكين كل مرة من المرات العديدة التي سرقها قو تزي. وفي الحقيقة يتذكر الحرفيون كبار السن موقف مطادرة الأب وابنه لهذه السكين. في تلك اللحظة انفجر تشين باو نيان في غضب وشراسة غير معتادين، فحمل سكين البامبو الكبيرة التي استعادها، ووجه ضربات إلى وجه قو تزي بمقبضها الخشبي. وحينما ضربه كانت عينا تشين باو نيان تلمع بنيران الغضب الذي يشتهر به رجال عائلتنا، وكان يرهف السمع إلى صوت تكسر عظام قو تزي. وكانوا يقولون إن الغريب في الأمر كان قو تزي نفسه، كيف لم يكن يخاف من المقبض الخشبي، فقد كان يستند على الجدار ويقف بصلابة في مواجهة تشين باو نيان، وقد تورم وجهه لكنه لم يكن يغطيه مطلقاً. لم أرَ في حياتي أباً كهذا.....

قل لي لماذا يريد قو تزي سرقة تلك السكين

ثم قل لي لماذا يخاف تشين باو نيان

أن يفقد

تلك السكين

لم أرَ سكين البامبو الكبيرة القديمة من قبل. لا أعرف. فقد خطر ببالي فقط جينات البامبو التي يحملها أهالي فييتنغ يانغ شو في دمائهم. فإذا كان جدي وعمي عصا من البامبو، وكانت مشاعرهما عصا من البامبو، فقد كان كل شيء سيتخطى حدود تفكيرنا. ولا حاجة لي أن أدخل المنطقة الفارغة التي تركها لي أجدادي، يمكنني أيضاً أن أخط تاريخ عائلتي. ويمكنني أن أتحول أنا أيضاً إلى عصا بامبو.

أحب فقط عمي ذاك الذي يشبه عصا البامبو. وكنت أتخيل أنني أرى العلّية الصغيرة في دكان أشغال البامبو في مدينة البامبو القديمة. في تلك الأيام عاش هناك قو تزي وصديقه الأعمى الصغير. كانت نافذة العِلّية الصغيرة في عتمة الليل تطلق ضوءاً أحمر خافتاً، كان ذلك الضوء الأحمر مشعاً من أعينهما. وسيغمر فؤادك التأثر عندما تتطلع إلى العلّية، وسترى أنه فوق جبين شخص يوجد شخص آخر، وهما ينظران إلينا عبر تلك العلّية التي لم تعد موجودة الآن، مُعلَّقين في فضاء عام ١٩٣٤

في تلك العلّية، وعبر نافذتها الصغيرة كان قو تزي يرى دكان تشين باو نيان من نظرة عابرة. وكان وجهه متورماً متقرحاً طوال اليوم، قابعاً في ظلام العِلّية كزهرة خشخاش حمراء قلقة.

كان يستند على الشباك ويحرس الدكان الغارق في الظلام. وينتظر مجيء المرأة الصغيرة هوان تزي. وحينما كانت تصل، كانت دائماً تحمل حذاءها الأبيض في يدها، وتعبر الدكان بقدمين عاريتين، وكقطة مهتاجة تقفز بخفة في الدكان المليء بأشغال البامبو، وتفتح غرفة نوم جدي تشين باو نيان. وما أن تفتح الباب حتى يتدفق فيضٌ من النور إلى تاريخ عائلتي. وقد احترق عمي قو تزي بهذا الفيض، وحكَّ وجهه المجروح على الحائط البارد المصنوع من البامبو. الألم. «والدتي، أين والدتي؟» تطلَّع قو تزي إلى غرفة والده وسمع صوت مواء هوان تزي يتدفق ندياً في الحجرة ويطفو في الدكان. هذا الصوت لا يشبه صوت جدتي حينما كان جسدها وجسد تشين باو نيان العاريان يلتفان على سرير القش في المنزل القديم، فقد كان قو تزي يعلم أنها ساكنة كشجرة ذابلة. وطفا هذا الصوت شيئاً فشيئاً صاعداً إلى عِلِّية قو تزي. وطفا معه قو تزي. وكانت يداه تتحركان بجنون داخل سرواله الداخلي القماشي الخشن كمياهِ مغلية. «والدتي، أين والدتي؟» انكمش جسده كالأفعى باضطراب وقلق، وتلوى وجهه المليء بالجراح إلى أن لفظ عذريته في النهاية.

أعرف الآن هذه العِلَية. كان الأعمى الصغير صديق قو

تزي يسكن فيها أيضاً. وإلى جانب ذلك تخيلت من قبل أسباب بدء قو تزي في ممارسة العادة السرية بشكل عنيف. ولعل تصوري كان حقيقياً. ولاحت أمامي بقعة الدم الداكنة في عين الأعمى الصغير. الإغراء الجنسي العجيب الذي لم يستطع أجدادي الهروب منه. وأعتقد أن قو تزي قلَّد صديقه تحت تأثير هذه البقعة الحمراء. فعلى كل حال يذكر الحرفيون المسنون أن عِلِّية الدكان في عام ١٩٣٤ كانت بها آثارُ مَنيٍّ أصفر وأبيض في كل مكان.

ويجب علي أن أدفع الأعمى الصغير إلى تخيلاتي مرة أخرى. فقد كان بقعة سوداء باهتة زينت عائلتنا وامتدت إلى أغصان المدينة، وجعلتني أشعر بالفضول وأقع في الحيرة أيضاً.

وثمة فترة جذب فيها الأعمى الصغير جدي وعمي حتى أنه وصل لي، وحينما ذهبت إلى المدينة القديمة لأزوره سألت عنه تقريباً منازل الحرفيين جميعها. وعندما سمعت خبر أنه مات في حريق شلّني الرعب والحيرة. وقلت لهؤلاء الحرفيين المسنين إنني أردت حقَّاً أن أرى تلك العين.

لأستكمل تخيلاتي. أليس اختلاس قو تزي النظر إلى والده والمرأة الصغيرة هوان تزي وهما يمارسان الحب في

ذلك العام هي المأساة التي حرضه الأعمى الصغير على فعلها. تسلل قو تزي إلى باب غرفة والده واختلس النظر، ورأى والده على سرير البامبو وقدمي هوان تزي الصغيرتين البيضاوين، وأعلاهما عُلِّقَت سكين البامبو الكبيرة القديمة. وقال له الأعمى الصغير إذا أحسست بالغرابة فإياك أن تصرخ. إلا أن قو تزي انحنى على الباب وصرخ فجأة بصوتٍ حاد:

«هوان تزي، هوان هوان هوان هوان هوان!» وسقط قو تزي على الأرض صارخاً. فقام تشين باو نيان بجرّه إلى داخل الحجرة. ولم يكن يشعر بأي خوف أمام جسد والده العاري الشاحب، ولكنه حينما رأى هوان تزي التي كانت تقف على السرير مرتدية التشيباو الأزرق انسابت دموع حارة من عينيه. وعندما كانت هوان تزي تزرر ملابسها قالت: «قو تزي يا لك من شخص! بعد ذلك علَّقه تشين باو نيان في عارضة السرير طوال الليل، ولم يكن يبدو على وجهه أي تعبير ينم عن ألم، بل كان ينظر إلى شباك العلِّية. وكان الأعمى الصغير يهتم من الأعلى بقو تزي المُعلَّق.

وقد روَّض الأعمى الصغير شهوةَ قو تزي البالغ من العمر خمسة عشر عاماً. وقد بلغ التأثير الذي تركه عليه ذورةَ الكمال. وعندما حاولت أن ألخص هذا النوع من التأثير

والتعليم الاستثنائي، اكتشفت أنه مُنحَنَى حياةٍ أسود.

كسب الأموال، النساء، الولادة، الموت.

كان هذا المُنحَنَى الأسود ملتفاً بقوة حول جسد قو تزي، وقد كان مُعلَّقاً على ارتفاعٍ عالٍ في وقت مبكر عن سنه في ذلك المدار الذي يُسمَّى «النساء». ويقال إنه لهذا السبب أصيب بحمى التيفوئيد. ففي شتاء عام ١٩٣٥ كان قو تزي يستلقي مريضاً في العلَية الصغيرة وهو يعد شعره الأسود المتساقط. وقد كانت رائحة براز كلاب القرية لا تزال في شعره. وجمع خصلات من شعره على شكل حزمة ودسها في فتحة سكين البامبو التي تخص الأعمى الصغير، ولهذا فقد كانت تلك السكين المخروطية الشكل تطلق في العلِّية الصغيرة رائحة الحمى. وكان جدي يشم تلك الرائحة العجيبة عندما كان يصعد دائماً إلى العلِّية الصغيرة. وكان يُدخل يده تحت لحاف قو تزي القذر والدافئ ليطمئن على حياة ابنه، ويسرح دون وعي في خيالات غامضة لا حدود لها. وقد عاد إلى طبيعته الأولى بسبب مرض قو تزي. فقد كان تشين باو نيان يداعب رأسه التي كان الشعر يتساقط منها يوماً بعد يوم ويقول: «قو تزي إنك مريض للغاية، هل مازلت تريد سكين والدك؟» ظل قو تزي ساكناً. فقال تشين باو نيان: «ماذا تريد؟» فجأة شرع

قو تزي في نشيج، واهتز جسده بألم تحت اللحاف، «إنني على وشك الموت.....أريد امرأة.....أريد هوان تزي!»

رفع تشين باو نيان قبضته ثم أنزلها مرة أخرى. وقد رأى نيران الموت قد بدأت تتراقص على وجه ابنه. وحينما هرب من العِلَية خافضاً رأسه سمع هتاف قو تزي المبحوح أريد هوان تزي هوان هوان هوان هوان.

في شتاء ذلك العام كان الحرفيون دائماً يرون الأعمى الصغير يحمل قو تزي المريض ويجلسان خارجاً للتشمس. كانا يجتازان الدكان ثم يدفع الأعمى الصغير الباب الخلفي، ويجلسان في الشمس. وكانت المرأة الصغيرة هوان تزي دائماً تعلق ملابسها تحت الشمس في منتصف النهار. عصا من البامبو تتمايل عليها ملابس هوان تزي الجميلة الظريفة. وكانت المدينة تتحول أيضاً إلى دوائر مياه تحت صوت تنقيط الماء المنساب من التشيباو الأزرق. وكان وجهها المستدير كالقمر يكتسي بملامح ساحرة، وكانت تبتسم باتجاههما وهي تنفض التشيباو المبلل. كانت هوان تزي تعلم أن هناك رجلين مريضين يجلسان عند الباب الخلفي للدكان. (سمعت أن الأعمى الصغير كان مصاباً بالسيلان منذ أن كان عمره ثمانية عشر عاماً إلى أن بلغ الرابعة والعشرين). وبهذا كانت ترمي لهما بدلال قطرات مطرها.

لم أكن أعلم الكثير عن شتاء عام ١٩٣٤ ولم يكن بإمكاني أن أصف ما كان يفعله هؤلاء الأجداد في شتاء ذلك العام. وسمعت أيضا أن جدي كان يحمل قو تزي ويجلسان في الشمس. وهكذا كانا يجلسان معاً ويتأملان المرأة الصغيرة هوان تزي وهي تعلِّق الملابس. كيف كان منظر هؤلاء الثلاثة وهم يتطلعون إلى بعضهم بعضاً عبر التشيباو الأزرق، وكيف كان منظر شمس شتاء عام ١٩٣٤ وهي تنساب بأشعتها على هؤلاء الثلاثة، هل كنت أعلم؟

ولكن النهاية كنت أعرفها. كنت أعلم أن تشين باو نيان قال لابنه في النهاية: «قو تزي سأعطيك هوان تزي، لا تمت. أريد أن أرسلها إلى القرية. إذا بقيت فقط على قيد الحياة فستكون هوان تزي زوجتك». هكذا أخبره أثناء جلوسهما عند الباب الخلفي للدكان. وبعد ظهر هذا اليوم كان قو تزي قد لفظ أنفاسه الأخيرة. وقد حممه تشين باو نيان بصابون مُعطَّر، وأزال إلى الأبد رائحة براز الكلاب التي كانت تفوح من شعره، وجعله يفوح برائحة المدينة المُعطَّرة. وأعلم أيضاً أنه بعد ظهر ذلك اليوم كانت المرأة الصغيرة هوان تزي تقف خلف عصا البامبو تعصر التشيباو الأزرق المبلل، وتترك في الشارع بِركة ماء زرقاء باهتة.

وخلال الكثير من السنوات عندما كان أبي يفتح الباب

الخشبي سواء كان ليلاً أو نهاراً، كان دائماً يعتقد بأن أقاربنا لا يزالون يهيمون، وقد كان يفتح الباب وكأنه ينتظر وصولهم. وقد قُسِّمت أكوام القش بعد ذلك إلى ستة أكوام. وقال إن أصغر كومة هي من أجل أخي الكبير قو تزي الذي رحل عن الحياة مبكراً، وذلك لأنه لم ير أخاه الكبير من قبل ولكن هل كانت روحه تستلقي في منزلنا وتكبر يوماً بعد يوماً، قال أبي إن الإنسان الميت يكبر كثيراً عمَّا كان أثناء حياته. وقد قسَّم والدي أكوام القش من قبل أن يدخل المستشفى في العام الماضي، وأخبرنا بأن أكبر كومتين هما لجدتي السيدة جيانغ وجدي تشين باو نيان.

كنت أقف جانباً أنظر إلى والدي وهو يقسِّم كومات القش للأقارب الذي رحلوا عن حياتنا، وحينما وصل إلى الكومة السادسة تردد للغاية، فحمل تلك الكومة وهو لا يدري أين يضعها.

«لمَن هذه الكومة؟» قلت.

«هوان هوان». قال والدي، «أين أضع كومة هوان تزي؟»

«ضعها بجانب كومة جدي». قلت.

«لا». تطلَّع والدي إلى كومة هوان تزي. بعدها ذهب إلى غرفته.

رأيت والدي يدس كومة هوان تزي تحت سريره.

هوان تزي أيتها المرأة الصغيرة أين أنتِ الآن؟ إن القش الجاف في منزلي ينتظر عودتك كذلك. كانت امرأة من المدينة. فلأي سبب دخلت تاريخ عائلتي من قرية فيينغ يانغ شو؟ لم نكن أنا ووالدي نملك تفسيراً لذلك. لكن الذي لا يمكنني نسيانه هو ذلك المعنى التي تحمله كومة القش المعقدة هذه. هل يمكنك أن تعطيني سبباً واضحاً لإخفاء والدي هذه الكومة تحت سريره؟

أخبرني عجائز القرية أن هوان تزي ظهرت في قرية ما تشياو وقت مغرب يتساقط فيه الثلج. كان جسدها الصغير ملفوفاً بملابس المدينة الرائجة الثقيلة، وتطأ بفرح الثلج المتجمع على الأرض الطينية. وكان هناك رجل برفقتها.

كان هذا الرجل يرتدي قبعة من الفراء ويحجب وجهه وشاح نسائي، يُظهر فقط عينين هادئتين. وقد عرف أحدهم من الهيئة التي يمشي بها هذا الرجل أنه كان تشين باو نيان.

كان هذا الحرفي الذي عاد إلى مسقط رأسه بأكثر الأشكال غموضاً. وكان جلياً أن هناك الكثير من الناس قد رأوا تشين باو نيان وهوان تزي يركبان عربة يدوية بعجلة واحدة ويتجهان ناحية المنزل بسرعة، بعدها اكتشفوا أن تشين باو نيان العائد إلى قريته اختفى وقت المغيب.

كانت جدتي تقف عند المدخل وتنظر إلى تلك المرأة الصغيرة التي تطأ الثلج وتتجه نحو منزل جدي.

كان التشيباو الأزرق الذي ترتديه هوان تزي يطلق وميضاً أزرقَ قوياً، يؤذي عيني السيدة جيانغ.

وتهادى إلى سمعي الآن الحوار الأول الذي جرى بين المرأتين قبل خمسين عاماً.

«من أنتِ؟»

«أنا زوجة تشين باو نيان».

«أنا زوجة تشين باو نيان، من تكونين بالضبط؟»

«مهما قلتِ فأنا لن أعرف من أنتِ. أنا حامل، بطفل تشين باو نيان. وقد أحضرني إلى هنا لأضع الطفل. لم أكن أود المجيء ولكنه أجبرني».

«يمكنني أن أرى من نظرة أنك في الشهر الثالث.»

«هل ولدتِ هذا العام لقد أحضرت الكثير من ملابس الأطفال سأعطيك بعضاً منها».

«لا أريد ملابس أطفالك هل أحضرتِ معك نقود تشين باو نيان؟»

«لقد أحضرت الكثير من النقود كلها تحمل ختم تشين باو نيان الأحمر انظري».

«أعلم أن أمواله كلها مختومة بختم أحمر لم يرسل لي أموالاً هذا الخريف ومات خمسة أطفال».

«أدخليني المنزل أنا على وشك أن أتجمد من البرد إن تشين باو نيان لا يريد العودة».

«إذا دخلت أو لم تدخلي سيان فالجو بارد، هل جعلك تعودين إلى القرية لتلدي طفلك؟»

(في الوقت نفسه سمعت صوت خطوات أقدام تشين باو نيان تطأ الثلج خلف المنزل. تشين باو نيان هل تسمع أنت أيضاً ما يجري؟)

أول ما رأته عيناها حينما دخلت المنزل هو ستة أحبال من الشيح البري تتدلى من السقف وتحترق بهدوء، وتنشر في المنزل رائحةَ رمادِ قشٍّ خفيفة. أشارت هوان تزي إلى الحبال قائلة: «ما هذا؟»

«حبال لاستدعاء الأرواح. عندما يموت الأشخاص يقوم الأحياء باستدعائهم ألا تفهمين ذلك؟»

«هل مات ستة أطفال؟»

«لقد مات تشين باو نيان أيضاً». تأملت السيدة جيانغ حبال الشيح فترة طويلة ثم اتجهت إلى السلة الموضوعة في زاوية الغرفة وحملت طفلها، وابتسمت لهوان تزي قائلة: «لقد عاش طفل واحد فقط، ومات البقية».

كان والدي هو الطفل الذي بقي على قيد الحياة. حينما اتجهت هوان تزي ناحيته لتتأمل وجهه وداعبت وجنتيه رائحتها المدينية. حرك الطفل شفتيه وكأنه على وشك البكاء، وفي طرفة عين انفرجتا عن أول ابتسامة له. ووسط رائحة المدينة التي حملتها هوان تزي تعلَّم والدي كيف يبتسم. رفع يده الصغيرة شيئاً فشيئاً ولامس وجهها، واستيقظ إحساس الأمومة لديها بشكل كامل، فصرخت بحدة وارتجفت وهي تفتح فمها وتعض يده الصغيرة، وقالت بصوت غير واضح: «لَكَم أحب الأطفال لقد حلمت بأنني أنجبت ولداً يشبه طفلك الصغير».

حينما تذكرت معيشة جدتي مع المرأة الصغيرة هوان تزي تحت سقف واحد خططت بذلك سؤالاً صعباً يخص تاريخ عائلتي. فلم يكن ثمة وجود لظاهرة تعدد الزوجات في الأجيال الخمسة لأجدادي، ولكن أهالي قرية فيينغ يانغ شو أخبروني أن هاتين المرأتين في الحقيقة قضيا شتاء عام ١٩٣٤ مع بعضهما. كانت ملابس هوان تزي الزرقاء مغسولة ومعلَّقة لتجف، تتمايل في فضاء منزل جدي.

وقالوا إنَّ هوان تزي الحامل كانت تحمل والدي الذي كان رضيعاً حينذاك وتمشي في أزقة القرية، وبطنها منتفخ جداً تحت ردائها الأزرق. كانت هوان تزي امرأة من المدينة

تحب الأطفال للغاية، وتحب الكلاب البرية وكلاب المنازل التي كانت تقفز هنا وهناك بين الأشجار، ودائماً كانت ترمي العلكة التي تمضغها للكلاب. ولن تعرف إلى أين تريد هوان تزي الذهاب وهي تحمل الأطفال أو تحتضنهم، فقد كانت دائماً تسير مطمئنة وقت الشروق في القرية، وحينما تمر برجال تبتسم لهم ابتسامةً مدللة. سوف ترونها تدخل شيئاً فشيئاً إلى بساتين البامبو الساكنة، وهي تربت بخفة على طفلها وتغني، وتتأمل بذعر شتاء القرية. حينما ظهرت هوان تزي في بستان البامبو، أدرك أهالي القرية المارون بأنها شديدة الشبه بأخت جدي فيينغ تزي الراحلة. فقد كانت ملامحهما المنسجمة مع أوراق البامبو متشابهة بشكلٍ مدهش.

كانت هوان تزي وفيينغ تزي المرأتين الأكثر جمالاً في عائلتي. وللأسف لا يوجد لهما صورة، فلا يمكنني أن أخمن ما إذا كانت ملامحهما متشابهة أم لا. وقد كانتا طائري عنقاء يقبعان تحت جناح جدي تشين باو نيان. الأولى كانت أخته، والثانية لم تكن من أقاربي، بل كانت جارته وهي صاحبة دكان زيت السمسم في المدينة، هل كانت بالفعل ذات قرابة من عمتي فيينغ تزي أم ماذا؟ وأي طائر كنت راغباً فيه يا جدي؟ هذا ما لم تعرفه الأجيال التي خلفته.

كنت أود الغوص في فؤاد جدتي المثقل وأبحث في أمر

ماء المخلل الذي كانت تقدمه لهوان تزي. كانت هوان تزي تنتظر ولادتها في الشتاء، وكانت جدتي تأتيها بطبق وراء طبق من ماء المخلل، لترتشفه. وكانت هوان تزي تمتم إعجاباً: «إنني أحب هذه الشوربة جداً. ولكنني لا أشرب غيرها الآن». وضعت جدتي الصحن وتأملت بطن هوان تزي الذي كان ينتفخ يوماً بعد يوم، وعيناها خامدتان بعض الشيء، ثم مضت تكرر كلامها بشكل متواصل قائلة: «نحن في الشتاء، ولا يوجد أية أعشاب برية، لا يوجد غير ماء المخلل لأقدمه لك».

كان المخلل موضوعاً في جرة كبيرة. وعندما تشعر هوان تزي بالجوع يكفي فقط أن تمد يدها في الماء الأسود المالح وتنتشل بعض المخلل، وتمسكه في يدها وتتناوله. وفي أحد الأيام أخرجت بعض المخلل وفجأة لم تستطع بلعه، وامتلأت عيناها بالدموع، فقامت بقذف المخلل وهي تدق الأرض بقدميها وتصرخ قائلة: «لماذا يوجد مخلل مخلل فقط في هذا المنزل».

جاءت جدتي وجمعت المخلل وأرجعته إلى الجرة، ثم قالت لها بوقار: «نحن في الشتاء، لا يوجد غير المخلل لأقدمه لك. إذا لم تكوني تحبين أكله فلا يمكنك رميه على الأرض كذلك».

«ماذا عن الأموال، أموال تشين باو نيان؟» قالت هوان تزي، «أعطني نقوداً لأشتري طعاماً آخر».

«لم يتبقَ شيء من أمواله. لقد اشتريت أرضاً مساحتها مائتا ماو. لقد مات الكثير من أفراد العائلة حتى أننا لا نملك مقبرة. يمكن للشخص أن يعيش بدون طعام، ولكن إذا لم يكن له قبر فلن تكون لحياته طعم».

وعبر نظرة جدتي الحادة كالبرونز احتضنت هوان تزي وجهها الباكي.

وأحست بأن بشرة وجهها أصبحت صفراء خشنة، كان هذا هو العقاب الذي عاقبها به منزله. كانت هذه المرة الأولى التي تشعر فيها هوان تزي الباكية بأن حياتها تتخذ مجرى حزيناً تعيساً.

هتفت اسمه بخفة تشين باو نيان تشين باو نيان أنت أيها اللعين، ثم عادت إلى جرة المخلل. وانتشلت بعض المخلل بيأس ودسته في فمها، ومضت تأكل المخلل حتى أصاب معدتها اضطراب صاحبه غثيان شديد. ثم انفجرت في بكاء حاد. ثم بدأت في التقيؤ من أعماق معدتها، تقيأت بركة صغيرة سوداء حامضة، انسابت على ملابسها الزرقاء الجميلة.

كنت أعلم أن أمر بيعها خاتم الذهب في قرية ما تشياو

حدث بعد موجة التقيؤ تلك. ويُقال إن هذا الخاتم هو هدية من جدي، وقد رمته بلا شفقة على منضدة دكان بيع اللحوم، وقبضت على لحم الخنزير وغادرت القرية. وكانت هذه هي المرة الثانية التي يراها فيها أهل القرية. وقالوا جميعاً إنها كانت نحيلة كقطة وتمشي في الشارع وكأنها ليست في شهرها الثالث من الحمل. كانت تحمل قطعة اللحم تلك وتجتاز طريق القرية الطيني الكبير، وعندما تمر بشباب لا تنسى كذلك نظرة عينيها الساحرتين. وقد وَصفتُ عدة مرات حجراً كبيراً كان ملقىً في الطريق الطيني الكبير، وكاد هذا الحجر أن ينهي حياة هوان تزي بعد أن تعثرت به، وطارت بجسدها الحامل الذي يشبه قطعة خشبية وهي تصرخ مذعورة. وطارت قطعة اللحم أيضاً. ودوى صوت هذه الصرخة المذعورة في الطريق الذي تنساب فوقه أشعة الشمس الغاربة، كان صوت دوي حزين وبعيد. وفي تلك اللحظة أدركت أن الكارثة التي حطت بها كانت موجهة إلى جنينها، فاستلقت داخل حقل الأرز المقفر، ويداها تقبضان بشدة على بطنها، وأحست كذلك بآلام البطن الشديدة. وقد شعرت تماماً وبدون شك بتسرب الحياة الصغيرة خارج رحمها. وتحولت فجأة إلى امرأة خاوية. جلست هوان تزي بضعف على الأرض وهي تنتحب بحدة، وتنظر إلى بركة

الدم المتموجة تحتها. حاولت أن تمسك بالدم المنساب، ورأت طفلاً ملامحه تشبه ملامح عائلة تشين انكشف وجهه للحظة، ثم حلق بخفة ناحية سماء القرية، كخيط من دخان أسود.

بقيت هوان تزي التي أُجهضت في المنزل تنتحب ثلاثة أيامٍ وثلاث ليالٍ متواصلة على فراش القش. لم تكن تأكل أو تشرب، وفقدت ملامحها الجميلة خلال هذه المدة القصيرة. وكما اعتادت جدتي فقد كانت تقدم لها ماء المخلل، وتقف جانباً متأملة الفتاة المدينية المتألمة.

وحينما وقعت عينا هوان تزي الذابلتان على الصحن انفعلت بعض الشيء. وشمت رائحة غير طبيعة تفوح من الماء الأسود، وأحست أن طفلها أجهض شيئاً فشيئاً بسبب تناولها هذا الماء. وقالت فجأة كمَن أفاق من حلم:

«يا أختي، ماذا وضعت في هذه الشوربة؟»

«ملح. يجب أن تتناول الحامل الكثير من الملح».

«يا أختي، ماذا وضعت في الشوربة جعلني أجهض طفلي؟»

«لا تتفوهي بالهراء. أنا أعرف أنك ذهبتِ إلى القرية واشتريتِ اللحم ثم سقطتِ وفقدتِ طفلك».

نزلت هوان تزي من الفراش وسحبت يد جدتي بقوة، وهي تنظر إلى وجهها الهادئ الساكن. وهزتها قائلة: «لن تجهض سقطة واحدة جنيناً عمره ثلاثة شهور، ماذا وضعتِ في الطعام بالضبط، لماذا تريدين أن تتآمري على طفلي؟»

في النهاية انفجرت جدتي غاضبة، ودفعت هوان تزي إلى الفراش ثم انقضت عليها تشد شعرها، أنت يا كلبة المدينة أنتِ أيتها الوضيعة بأي حق تأتين إلى منزلي لتلدي طفل تشين باو نيان اللعين. كانت عينا السيدة جيانغ الحانقتان نصفها ينساب منه الدموع والنصف الآخر تلتهب داخله شعلة كره وغضب كبيرة. وطوال ضربها لهوان تزي كانت تردد بشكل متقطع: لم يكن يمكنني أن أجعلك تلدي الطفل.....لقد كان لدي ستة أطفال ماتوا جميعاً عندما كبروا.....موت الطفل داخل رحمك أفضل.....لقد وضعت في ماء المخلل شيئاً قذراً، لن أخبرك ما هو هذا الشيء القذر.....أنت لا تعرفين كم أكرهكم.....

في الحقيقة يجب عليَّ أن أتجنب ذكر تفاصيل هذه الحادثة. فلقد لطّختُ بارتباك صورة جدتي بما يكفي، ولكن بالنسبة لتاريخ عائلتي في عام ١٩٣٤ فلم يكن أمامي خيار آخر. وأنا أشتاق إلى ذلك الجنين الذي لم يولد، فإذا كان (كانت) ولد في منزلي في قرية فييغ يانغ شو، فقد كانت شجرة العائلة ستزيد قريباً آخر، وكنا أنا وأبي سنزداد شوقا

وترقباً، وكان سيمتد من نسب عائلة تشين النابغة الممتدة رافد آخر، وبهذا ألا يكون تاريخ عائلتي ممتلئاً بتفاصيل أكثر.

كان اختفاء هوان تزي كظهورها وقد ترك في عائلتي جرحاً لا يمكن شفاؤه، ويكون هذا الجرح متعفناً مختمراً إلى ما لانهاية، ويجب علينا أن نلعقه على مضض.

استولت هوان تزي على أبي الموجود في السلة. حملت طفل عائلة تشين واختفت من القرية، وكان جلياً أنها أخذت والدي كتعويض عمَّا حدث. ولعلَّ النساء جميعهن هكذا، عندما يفقدن شيئاً يُردن تعويضاً له. لم ير أحد الفتاة المدينية التي استولت على طفل عائلة تشين، لعلَّ هوان تزي اعتمدت على أمومتها ونبت لها جناحان؟

تبعت جدتي هوان تزي وأبي شتاء كاملاً. وامتدت آثار خطواتها إلى أن وصلت إلى نهر اليانغستي وتوقفت هناك. كانت هذه هي المرة الأولى التي ترى فيها النهر. وكانت مياه النهر في شتاء عام ١٩٣٤ تهدر هديراً كأيام الفيضان. وكانت رواسبه الطينية الصفراء التي ترسبت طوال ألف عام جامدة كالحديد، ترتطم بفؤاد امرأة قروية. حملت السيدة جيانغ ثامن حذاء قش مهترئ ومضت تتسكع جيئةً وذهاباً على شاطئ النهر، وشعرها المشعث يهفهف مع النسيم، وعواطفها تدور في ماء النهر كورقة شجر يابسة وحيدة. ثم قذفت الحذاء في النهر

الشاسع وعادت أدراجها. كانت أطراف عالم فؤادها هو ذلك النهر الكبير.

لم تكن قادرة على اجتياز ذلك النهر الكبير.

أريد منكم أن تنتبهوا إلى رحلة عودة جدتي لتعرفوا نهاية حياتها.

سارت جدتي عبر شتاء عام ١٩٣٤ الطويل، ووصلت إلى قرى ومدن تبعد خمسمائة ميل، وقد تغير شكل الطريق تماماً. ويذكر أهالي القرية أنها عادت في آخر العام. كان أهالي قرية ما تشياو علَّقوا المصابيح الورقية الحمراء استعداداً لاستقبال عام ١٩٣٥ عبرت السيدة جيانغ بأيدي فارغة هذه المصابيح الحمراء، ووجهها المنهك يلمع بظلال حمراء. وكانت ترتدي ملابس رجال قطنية وحذاءً، وتلف حبلاً من القش على خصرها. وسألها مَن تعرَّف عليها: «هل عثرتِ على الطفل؟» كانت تستند على الجدار وتبتسم ناحيتهم قائلة: «لا لم أعثر عليه، لقد اجتازا النهر». «هل توقفتِ عن البحث عنهما بعد أن اجتازا النهر؟» «لقد وصلوا إلى المدينة، لا يمكنني اللحاقُ بهما».

عادت جدتي في عشية عام ١٩٣٥، وخرجت من تاريخ عائلتي شيئاً فشيئاً تعلو وجهها ابتسامة. بعدها وقفت على منحدر رملي في الجهة الشمالية الغربية للقرية، وهي تتطلع

إلى منزل الثري تشين وين تشي المبني من القرميد الأسود. في تلك اللحظة خرجت مجموعة من الكلاب من كل ناحية تركض باتجاهها، وأحاطوها وهم يشمون رائحة جسدها الغريبة، فقد مر الشتاء وكلاب القرية لم تعد تعرفها. لوحت بيدها مبعدة تلك الكلاب، ثم بدأت تهتف باسم تشين وين تشي وهي تقف على المنحدر الرملي.

خرج تشين وين تشي على صوتها، وتلاقت نظراتهما البعيدة عبر ضوء الليل الشاحب، ورأى تلك المرأة التي تقف على المنحدر تشبه أغصان وأوراق شجرة بامبو تهتز متساقطة ومتشابكة. واستولى عليه شعور بأن تلك الشجرة ستفر في نهاية عام ١٩٣٤، لتنبت في راحة يده.

«لم يتبقَ لي شيء - ألا زلت تريدني - إذا كنت لا تزال تريدني احملني لديك بذاك الهودج الأحمر».

فُتِح باب منزله الحديدي مقرقعاً تحت صوت هتافها، وأمر تشين وين تشي ثلاث نساء قويات لا نعرف هوياتهن بأن يخرجن حاملات هودجاً أحمر، ويتجهن بهدوء ناحية السيدة جيانغ التي تقف تحت ضوء القمر. كان هذا الفريق الذي يحمل الهودج نادراً ما يُرى، ولكن ما كان مؤكداً أن جدتي جلست في الهودج ودخلت منزل تشين وين تشي.

وبهذا يجب أن أزيح جدتي شيئاً فشيئاً من تاريخ العائلة.

وأخبرني والدي بأنه لا يعرف اسمها إلى الآن. ولم يكن متأكداً من الذكريات الكثيرة التي تخص والدته، ذلك لأنه في عام ١٩٣٤ كان لا يزال رضيعاً.

ولكننا أعددنا أكبر كومة قش، استعداداً لوصول امرأة تشين وين تشي السيدة جيانغ مرة أخرى إلى هنا. وقال والدي إنها تعود دائماً.

لقد كانت جدتي السيدة جيانغ والمرأة الصغيرة هوان تزي نجمة وقمراً مضيئين قاما بتربية والدي، وهما أكثر امرأتين في تاريخ عائلتي تمثلان الصورة الرائعة للأم. أو هما نيزكان مختلفان، ارتطما ببعضهما في عام ١٩٣٤، وكانت الشرارة الزرقاء التي انبثقت عن الارتطام هي والدي وأنا وأولادنا وأحفادنا.

والمدينة التي تسكن عائلتنا فيها الآن كانت هي خط النهاية التي وصلت إليه المرأة الصغيرة هوان تزي حينها، وتبعد هذه المدينة عن منزلنا القديم في قرية فينغ يانغ شو بتسعمائة لي. ومنذ أن كنت في السابعة عشرة أو الثامنة عشرة من عمري كنت أحب أن أقول لأحد أصدقائي الذين يسكنون في هذه المدينة، «أنا لستُ من أهالي هذه المدينة».

في الحقيقة كل ما سردته كان قصةَ فرار. هكذا حدث الفرار مبكراً، هكذا بدأ الفرار مبكراً. وإذا انتظرت نهايةَ هذه

القصة يمكنك أن تعرف سبب موت جدي تشين باو نيان.

ملحق: السبب الحقيقي لموت تشين باو نيان أنه في ليلة اليوم الثامن عشر من الشهر الثاني عشر من التقويم القمري لعام ١٩٣٤، خرج تشين باو نيان من بيت دعارة تشينغ نان، وألقى عليه أحد الأشخاص الذي كان يختبئ أعلى سطح منزلي خشبي ثلاثة صحون من الماء البارد. بعدها اندفع راكضاً ناحية دكانه بكل قوته، وأراد أن يركض حتى يتعرق جسده، ولكن ما أن وصل إلى الدكان حتى كان جسده مُغطًّى بالثلج، وبهذا مرض مرضاً مجهولاً وتوفي في آخر العام، وقبل وفاته كان يقبض على سكين البامبو الكبيرة القديمة. وبهذا سُلِمت إدارةُ الدكان إلى شخصٍ آخر. ومن استلم الإدارة كان الأعمى الصغير. وكانت هناك أخبار تسربت عن بيت الدعارة هذا تقول، إن الذي ألقى الماء البارد كان هو الأعمى الصغير.

وأود أن يمنح موت جدي لعائلتي سلَّة وردٍ كبيرة. وسأقوم على الفور بحمل تلك السلة والخروج، وأسير بها عبر شوارع الليل المعتمة، وأمر بشبابيك بيوتكم. فإذا فتحتم هذه الشبابيك، يمكنكم أن تروا ظلي وسط تلك المدينة، متهادياً متمايلاً.

فمن يمكنه أن يعرف ما هذا الظل؟

جولةٌ في منزلنا

في خريف العام الماضي، قادت أمي عائلتنا المكونة من ستة أفراد، للانتقال من شارعنا القديم إلى منزلٍ في حي سكني جديد في مدينة «تشنغ شي»، استغرق الانتقال إلى المنزل الجديد نهاراً كاملاً، حيث قَطرت عربة نصف نقل بخللٍ في محركها، الأثاثَ والأواني الشخصية وأشياءنا التقليدية، وذهبت العربة وعادت ثلاث مرات لنقل الأمتعة. وأصابني الإرهاق الشديد وانتابني حالٌ من الغضب، وتخلَّفتُ عن وجبَتَيْ طعام.

جعلتني والدتي أرافق العربة حتى المنزل الجديد، فجلست في فجوة بين سرير من حبال الليف وموقد فحم حديدي. وكانت تلك المرةَ الأولى التي أتطلع فيها إلى منزلنا القديم بنظرةٍ يملأها الإجلال والتقدير، فيما كانت ملامحه تتلاشى وتنحسر شيئاً فشيئاً، بما في ذلك ثماني عشرة نبتة من نبات الواسونغ البنية زرعتها على السطح.

في الطريق إلى المسكن الجديد، بدأت أتذكر بيتنا القديم، حاولت تحليل أسباب الرائحة الكريهة التي يخلفها مصرف يجري بمحاذاة الطريق أمام الباب الخلفي للبيت، تذكرت

مشاعر جيراننا عند مشاهدتهم لنا ونحن نحزم أمتعتنا للانتقال إلى مسكن جديد. فكرت أيضاً في لاو قوه جارنا في المنزل المقابل، هل سيبدأ في الاستيلاء على المطبخ المشترك للعائلتين، ويُلحق الضررَ بالسكان الجدد. في الحقيقة، هذه الأمور ليست بذات أهمية الآن بالنسبة للمنتقلين أمثالنا، لكنني لا أستطيع أن أتخلى عن الطريقة التقليدية التي يفكر بها سكان شارعنا القديم. في النهاية، تذكرت الصندوق الكرتوني الموضوع في العلِّية. لاو قوه إياك واستخدام هذا الصندوق لإشعال النار في الحطب، فهذا الصندوق يحوي بداخله كراسة الرسم الخاصة بي، عندما كنت في العاشرة من عمري. وعلى صفحات هذه الكراسة رسمتُ جميع البيوت الجميلة التي تخيلتها وحلمت بها، جميعها بنايات تتكون من سبعة أو ثمانية طوابق، وجميعها تزدهي بأجمل الألوان، وتبهر الأنظار.

بناية بأربع شرفات، بناية سطحها كروي مستدير، وبناية مجهزة بمانع للصواعق، وبناية ذات بوابة مقوسة، وبناية برأس مدبب تحمل ساعة كبيرة، وبناية بأعمدة منقوشة وعوارض مزخرفة، وغيرها من البنايات التي يخلو شارعنا القديم منها. لا أعلم كيف تخيلت هذا النوع من البنايات

المهيبة الجليلة ورسمته، حتى أنني زودت البنايات بعائلة وجيران. كانت هذه العائلة هي عائلتنا، وأتذكر أنني جعلت البناية المجهزة بمانع الصواعق من نصيب لاو قوه. لاو قوه إياك واستخدام كراسة الرسم لإشعال النار في الحطب.

إنَّ رؤيةَ الشيء بعد رحيل صاحبه تبعث ذكراه، ولعلَّني حتى الآن لا أدرك بوضوح الأسباب التي جعلتني أسلَم كراسة الرسم خاصتي إلى ساكنٍ جديدٍ لا أعرفه...

الغرفة المُقسَّمة

وإذا ما لوّحت بيدي مُبتعداً مُغادراً، فإن ما يرتسم في خاطري عند تذكر البيت القديم هو البوابة الخلفية. تتكون البوابة من لوحين أخضرين من خشب التنوب، إذا ما فتحت لوحاً منهما، سترى فوراً رصيف نقل النفط للمصنع الكيماوي المجاور لمنزلنا، والذي يتسلق بشكل رائع السلَّم المحاذي للنهر المحيط بالمدينة. وكلما رست ناقلة النفط سواء في الليل أو في النهار، ينبعث دخانٌ أبيض يغمر البوابة الخلفية كلها. ينبعث الدخان الأبيض من أنابيب التصريف في مضخة الزيت، حاراً رطباً مبللاً، ولهذا في بعض الأوقات لا يمكننا رؤية النهر من البوابة الخلفية، بل نشم الرائحة التي تفوح من

النهر عاماً بعد عام، ولا يمكنك أن تعرف لماذا تنبعث منه هذه الرائحة الكريهة...

بعد فتح البوابة الخلفية، يلوح في ذاكرتي ركنٌ شفافٌ لامع، أرى من خلاله أختي الكبيرة وأنا نجفف الملابس قرب النهر، وإذا كنت أبلغ من العمر عشر سنوات في ذلك الوقت، فأختي كانت في الرابعة عشرة من عمرها. كنت أحمل عصا بامبو طويلة، وأختي شياو فِيْ تمط شفتيها وتعصر الملابس المبللة، ثم ترفعها وتنفضها باتجاه أشعة الشمس، وكأنها إحدى ربات البيوت التقليديات اللواتي يجففن الملابس بانتظامٍ وترتيب.

ويمكنني أن أتطلع أثناء تجفيفنا الملابس إلى النافذة المحاذية للنهر، إنها نافذة غرفتي أنا وشياو فِيْ.. وفي الربيع نضع زجاجة دواء على هذه النافذة، بداخلها ثلاث أو خمس زهرات من زهور الدرَّاق. وأتذكر أن أختي دفعتني إلى سرقة هذه الزهور من مشتل المصنع الكيماوي.

ولعلَّني يجب أن أخبركم، أنه عندما كنت أبلغ من العمر عشر سنوات، كنت أنام في الفراش نفسه الذي تنام فيه أختي الكبيرة. وقد كانت تضع قدميَّ الباردتين على صدرها حتى تدفئهما. بالطبع بعد ذلك، تركتُ الغرفة وانتقلت إلى العِلَية

التي بنيناها. كان السبب، أنه في أحد الأيام اتهمتني أختي زوراً، وقالت لأمي: «إن شياو دي وقح، فهو يختلس النظر إليَّ عندما أقضي حاجتي».

كنت في أغلب الأحيان أقف في إحدى زاويا السلم الخشبي ذاهلاً. إن الوقوف على السلم هو الوقوف على أعلى مرتبة في ذكريات طفولتي. كنت أطل على عائلتي، ونظراتي تخترق الحائط الرمادي حتى تصل إلى غرفة والديّ وغرفة أختي الكبيرة. ويفصل بين غرفة أبي وأمي وغرفة أختي أيضاً حائط رمادي.

كنت أراهم ينامون نوماً عميقاً أثناء الفجر الباهت. والدي بشعره الأشعث غير المرتب، وذراعا البنّاء تطوقان والدتي بشدة وهي نائمة، لهذا تبدو أمي وكأنها تعاني في نومها، ويبدو وجهها كمن خنقته الدموع، وكأنها تنتظر الرنّات المفاجئة للمنبه الموضوع فوق الخزانة. في الغرفة الأخرى، تتكلم أختي بلغة غير واضحة ومبهمة، وقد اكتشفت أن ذراعيها ترتفعان وتنخفضان كرافعة البضاعة الثقيلة، وكأنها تقوم بتحميلِ بضاعةٍ ما.

هذا هو صباح عائلتي، وقد اعتدت على صباحٍ كهذا، يعبق خلاله بيتنا بالرائحة الحامضة المنتشرة لمرطبانات

المخلل، وعندما تسمع فئران الليل وقع خطواتي تلوذ بالفرار.

لماذا كنت أول مَن يستيقظ في هذا المنزل؟ كيف لي أن أعرف؟. أتذكر فقط المنزل الأول الذي رسمته في دفتر الرسم خاصتي، وأنا منكب على أرضية غرفتي في العِلّية، وضوء الصباح الأزرق يتسلل من النافذة وينير المنزل الأول الذي صممته. كان يتكون من ثلاثة طوابق، ثلاثة طوابق رائعة مدهشة، لا يمكن لأي مبنى في العالم أن يضاهيه في الروعة. يحيطه سياج خشبي، البوابة كبيرة، النوافذ كبيرة، والغرف كبيرة أيضاً.

جعلت الطابق الأرضي من نصيب والدي ووالدتي، ترافقهما كومة من القش، ظهر القش في رسوماتي بشكل عجيب. وفي نافذة الطابق الثاني وضعت إصيصاً به زهر الدرَّاق، وعلّقت ستارة من قماش القطن المطبوع، وجعلت هذا الطابق من نصيب أختي. أما الطابق الثالث فكان لي، به طيور تطير في الغرفة، وكلب وقطة يجلسان القرفصاء. وكل الطابق الثالث، إلى سطح المنزل، إلى السماء، كله ملكي أنا.

في أحد الأيام، دخلت أختي غرفتي في العلّية بالممسحة، وأثناء مسحها أرضية الغرفة، اكتشفت كراسة الرسم، وقد تلطخت البناية المكونة من ثلاثة طوابق بالمياه الملوثة،

وأصبحت غريبة الشكل، قالت شياو فِيْ:

«اللعنة عليك يا شياو دي» أنت لا تدرس جيداً، ما هذه الرسومات؟»

«منزل، إنه منزلنا»

« لماذا يبدو منزلنا بهذا الشكل؟»، ضربت أختي على رأسي بسخط وغضب، وصرخت وهي تغادر العلَية: «أمي، انظري إلى شياو دي لقد رسم كومة من القش».. وقد تركزت المشكلة على كومة القش.

كانت أمي تحملق مبهوتة إلى المنزل الأول الذي صممته. بعدها سألتني: «شياو دي، لماذا رسمت كومة من القش؟ هل تحتقر أمك لأنها تقطع القش وتبيعه للحصول على المال؟» وعندما رأتني أختي لا أنطق بحرف، أمسكت بذراعي وهزتني بقوة بلا توقف وهي تقول: «هل حقَّاً تحتقر أمي لأنها تقطع القش وتبيعه؟» أصبحت حينها كالأحمق الأبله الذي لا يستطيع التحدث أو إعطاء أسباب للدفاع عن نفسه، كنت أفكر فقط في المنزل الأول الذي صممته، وأنا أخطو الخطوات الأولى وأدخل هذا المنزل الرائع.

القش وسلة الباميو

تعود بي الذاكرة إلى كومة القش. إذا كنت عجوزاً الآن،

ومُحاطاً بالأبناء والأحفاد وأملك الكثير من المال، فإنني سأظل أذكر كومة القش التي كانت موجودة منذ عدة سنوات. كانت أمي تقطع القش الذي جمعته على مدى خريفين، تقطع ٧٠٠ كيلوجرام من القش، ثم تبيعه للرجل المسؤول عن جمع القش في المزارع، وعلى مدى خريفين، جنينا مائتي يوان من القش المُجمَّع، وكانت أول ماكينة خياطة اشتريناها من أموال القش. وسأقول لأبنائي وأحفادي، إنَّ هذه الماكينة كانت ماركة «وي غونغ» ولكنها لم تعد متوفرة الآن.

عندما أعلنت والدتي عن رغبتها بالعمل في قطع القش، انقسم المنزل إلى فريقين، كان الفريق الأول هو والدتي وأختي، وهو بالطبع الفريق المؤيد، أما الفريق المعارض فكان والدي وأنا. كان والدي طوال الوقت يرى أن بيع أمي للقش سيجلب له العار، وتشاجرا لمدة ثلاث ليالٍ، وكانت النتيجة أن حسمت أمي الأمر لصالحها، وجهزت لوالدي سلة كبيرة، ومنجلاً، وسلَّتين معلَّقتين بعصا تُحمل على الكتف. قادته أمي كأنها تقود حصاناً كسولاً وأختي معهما. لم يتوقف والداي عن الشجار المتواصل طوال الطريق، وكانت أختي تتدخل بينهما لإسكاتهما وتهدئتهما، وكانت تحمل هي أيضاً منجلاً، وتربط على خصرها الزمزمية الميري الوحيدة في المنزل.

قطع فريق جمع القش سيراً الطريق الساكن في الصباح

الباكر، إلا أن شكوى والدي وتذمره وغضبه العارم أيقظ الكثير من الناس الذين تلصصوا من وراء نوافذهم لرؤية فريق جمع القش المزعج، ومن هنا تركوا انطباعاً عميقاً لديهم.

أمضت عائلتي خريفين في العراء، في تنفس روح هذا الفصل من السنة، وكانت هناك كومة صامتة من القش تقبع كل يوم في الظلام تحت سطح المنزل. وفي هذين الخريفين كبرت كثيراً.

عندما حملت أمي وأختي ماكينة الخياطة ماركة «وي غونغ» على العربة الكارو، كان والدي في البقالة على أول الطريق، وكان في مواجهة رف الحلويات يشرب النبيذ الأبيض، وما أن مرت العربة أمام البقالة حتى كسر والدي زجاجة النبيذ عليها، ثم سُمِع صوتٌ خفيض، انبطح بعده والدي على مصطبة البقالة كمَن شرب دموعه. وقال جميع الناس إنه كان ثملاً، لكن أمي سحبت العربة دون استئذان وانصرفت دون أن تنطق كلمةً واحدة.

كنت أعرف أن المشكلة كلها في هذا القش. ولفترة امتدت إلى عشر سنوات، استمرت علاقة والديَّ في التحول من سيء إلى أسوأ. فقد أشعلت كومةُ القش الحرب بينهما، وامتدت الحرب إلى العلاقة الزوجية، الغيرة، الأموال، ومن يملك الكلمة والقرار، وغيرها من المشكلات الأسرية الفرعية. وفي الأصل كانت هذه

المشكلات تختفي في جبل جليدي تحت الماء، وخلال خريفين طفا هذا الجبل على السطح، وتحول إلى بركانٍ متفجر. وخلال هذين الخريفين كبرت كثيراً حقّاً.

ذهبت إلى المدرسة التبشيرية التي كنت أذهب إليها من قبل، وفي ملعب المدرسة، رفعت المعلمة رأسي وقالت: «آي، لماذا يحمل وجهك كلَّ هذا البؤس؟» وقالت أيضاً: «إن رسوماتك جميلة جداً، والمنازل التي ترسمها بديعة للغاية» ابتسمت لها ابتسامة عريضة، وحفظت وجهها. لم أكن أدري أن وجهي يحمل كلَّ هذا البؤس، ولم يكن لدي هواية التقاط الصور في الماضي، ولهذا، فإنني حتى هذه اللحظة عاجز عن تذكر هيئتي منذ أكثر من عشر سنوات.

هناك أيضاً عصا من البامبو تركت في نفسي أثراً. ذهب والدي إلى مستشفى «هانغ تشو» لعلاج العمال، وفي عودته جلب هذه العصا من البامبو، غضبت والدتي، وقالت: «لقد طلبت منك أن تحضر عصا بامبو من «هانغ تشو»، عصا بامبو من «هانغ تشو»، ما هذه العصا اللعينة التي أحضرتها؟»، لم يرد والدي، بل رمى العصا على الأرض وكسرها. التقطت أختي العصا، ووضعتها على علاّقة البوابة الخلفية.

أصبح للعصا التي تشبه الأنبوب المفرَّغ استخدامٌ جديد، فقد كانت أمي تضع الخضار الذي تشتريه بداخلها للمحافظة

عليه طازجاً. وحينما تُعلَّقُ فارغةً على البوابة الخلفية، كانت تتأرجح في الهواء بحثاً عن بعض الملفوف الطازج، وقد جعل البخار المنبعث من رصيف النفط العصا التعيسة مصفرة باهتة. أحياناً كنت أقف تحتها وأطل على المصرف، والنهر، والناس التي تركب السفن، مَن رأى منكم البوابة الخلفية لمنزلي؟ من منكم غمرته أنفاس القش الحزينة من البوابة الخلفية؟

الحريق

أفكر أنَّ شارعنا القديم أشبه بقِدرِ حساء خضراوات.

يحيط بمنزلنا محل النعوش القديم الذي تملكه عائلة لو جيا ومنزل عائلة النجار المتواضع لاو قوه ومنزل المهاجر آه با دا القادم من «سو بي» وأيضاً يوجد المصنع الكيماوي. وكان لو جيا يملك كلب صيد ذهبياً، دجاجة صغيرة، وقطة أليفة. وقد أحببت هذا الكلب ذات مرة، نفق بعدها في آخر نعش من خشب السرو الموجود في المحل. سحبنا أنا والسيد لو جيا الكلب من النعش وألقيناه في المصرف وراء البوابة الخلفية لمنزلي.

«إذا كان هناك نعش للكلاب، كنت سأضعه فيه» هكذا قال السيد لو جيا وهو يحدق في جثة الكلب الطافية فوق سطح

الماء. كان عمر السيد لو جيا سبعين عاما، حينما نفق الكلب. وكانت هذه المرة الأولى التي أشعر فيها بطعم الموت والحياة في شارعنا القديم، ويوم إلقاء جثة الكلب في الماء، رأيت من جانبي عيني السيد لو جيا دموعاً مُسنَّة بلون حنطي، واللون الحنطي هو لون الموت.

آخر نعش من خشب السرو كان قائماً في قاعة منزل السيد لو جيا ساكناً، مهيباً، رأيته من باب منزلي. كان السيد لو جيا بشعره الفضي ولحيته البيضاء يجلس وحيداً في القاعة مقابل نعشه، ويستمع إلى ضجة شارعنا القديم. ضجيج في الشارع ونفسه هادئة. يجلس السيد لو جيا بشعره الفضي ولحيته البيضاء وحيداً في القاعة، وأحياناً يلقي التحية على جميع السيدات الدؤوبات اللواتي يكن لهن الاحترام العميق، ومنهن والدتي. يقول السيد لو جيا: «يا أم شياو دي، هل تذهبين إلى جمع القش؟»، فتضع والدتي السلة وترد: «مصيري هو جمع القش، استرح يا سيد لو جيا» وهكذا كان السيد يجلس بشعره الفضي ولحيته البيضاء حتى وافته المنية.

رقد السيد لو جيا في نعشه المصنوع من خشب السرو لثلاثةِ أيام وثلاثِ ليالٍ، من أجل أن يُلقي الأحياءُ النظرة الأخيرة عليه. كانت مراسم التأبين بسيطة مهيبة، وكان آخر عجوز في شارعنا القديم يفضل الدفنَ في نعش بعد موته. أخذتنا أمي

أنا وأختي لنقدم التعازي ونحن نربط الشارة السوداء على ذراعينا، ولنقف مع الفريق الكبير لحراسة الجثمان.

الحريق الذي اندلع في المصنع المجاور، حدث في الوقت ذاته الذي كانت تجري فيه مراسم تأبين السيد «لو جيا». كان الوقت ليلاً، ونصف أهالي الشارع مجتمعين في محل النعوش القديم يرافقون الميت، وفجأة شاهدوا نيراناً تتصاعد من المصنع وتصل إلى السماء، كان هناك شخص يضرب على برميل من القصدير وكأنه أصيب بمسٍّ من الجنون، وفي هذه اللحظة أحدث حريقُ المصنع صخباً وارتباكاً في شارعنا. وجاءت صفارات عربة الإنذار من نهاية الطريق، وهزت شارعنا العتيق. واخترقت عربة الإطفاء الحمراء الكبيرة كالزوبعة الترتيبات الجنائزية والجموع. وقد سمعت شخصاً يصرخ من عربة الإطفاء: «أطفئوا النيران!، لماذا لا تطفئون النيران؟!، أطفئوا النيران!، أطفئوا النيران!..

كان هذا الصوت يتردد صداه في هذه الناحية وتلك من شارعنا، وأردت أن أجري باتجاه المصنع، إلا أن والدتي أمسكتني ومنعتني من الذهاب، وقالت: «لا تذهب، سأهدأ فقط عندما يحترق هذا المصنع اللعين».

تطلعتُ إلى النيران التي تنبعث من المصنع، وتأثرت وحزنت. اكتشفت بعدها أن جميع جيراننا مكثوا لحراسة

جثمان السيد لو جيا ولم يذهب أحد لإطفاء النيران، إلا أن ألوان ألسنة اللهب الصاخبة انعكست في الليل على المحل القديم للنعوش، انعكست الألوان على هذه المجموعة الحزينة البائسة من سكان شارعنا القديم.

لم يُصبْ أحد من سكان شارعنا بأذى، وفارقنا السيد لو جيا، وكان ثمة وقت يستعيد فيه الناس ذكرى الحريق، لتتكشف جميع الآراء والأسباب الغامضة التي أدت إلى اندلاعه. يقول عمال المصنع، إن السبب هو عقب سيجارة رُمي في مستودع النفط، ولكن سكان شارعنا لا يصدقون، ويشعرون في قلوبهم أن هناك مُشعلاً مُتعمِّداً.

«شبح السيد لو جيا هو من أشعل النيران، لم يقدر في حياته أن يفعل شيئاً كهذا، ولم يخف من فعله بعد مماته» هكذا قالت أمي، وملامحها خالية من أي تعبير، تجعلك تفكر وتخمَن. أعرف فقط أن سكان شارعنا يضمرون الحقد لهذا المصنع. ومثلهم كان السيد لو جيا إلا أنه في حياته لم يقل شيئاً، لقد كان شخصاً بطباع جيدة وعجوزاً صبوراً.

شجرة الباراسول الصينية

حتى انتهائي من المدرسة الابتدائية، كنتُ قد رسمت الكثير من المباني الجميلة، وأنا عاجز الآن عن معرفة سبب

هذه الهواية. أذكر فقط نومي بمفردي في العلَية، وحلمي بأن تطأ قدمي هذه المباني الجميلة أكثر من مرة، ثم أصعد بعدها إلى السطح لأتشمس، أتشمس حتى أدفأ. حينما وصلت في رسوماتي إلى المبنى رقم مائتين، كانت أمي والساكن المقابل لنا لاو قوه يتشاوران في بناء مطبخ مشترك للعائلتين. وعلى كل حال فعائلتنا بها بنّاء، وعائلته لديها نجار، والموقع باحة صغيرة بين المنزلين.

وفي هذا الفناء الصغير كانت توجد شجرة باراسول صينية متوسطة الحجم.

وكانت المشكلة تتمحور حول شجرة الباراسول الصينية متوسطة الحجم.

قبل بناء المطبخ يجب قطع الشجرة. عندما بدأ لاو قوه بقطع الشجرة، اكتشف أن والدتي قد فتحت النافذة وتراقبه. قالت أمي. «لاو قوه، لا تتعب نفسك، سنقوم نحن بقطعها» فرد لاو قوه»: «لا عليكِ، سأقوم بقطعها، أَلن يكون أسهل عندما يقوم النجار بقطعها؟» كان الطرفان يفهمان بعضهما بعضاً. قطَّبت والدتي حاجبيها السميكين، وباعدت بين أصابعها وخبطت النافذة وتظاهرت بالضحك وهي تقول: لاو قوه من زرع هذه الشجرة؟»، قال لاو قوه: «هه، أَأنتم زرعتموها؟»، توقفت والدتي

عن الابتسام وهرعت إلى الفناء، وتحسست شجرة الباراسول التي كانت على وشك السقوط، وتوقفت أصابعها عند علامة محفورة على جذع الشجرة وقالت: «لاو قوه، ما هذا الاسم المحفور على الشجرة؟»

ماذا كان هذا الاسم؟ لقد كان لقبي عندما كنت طفلاً: «شياو دي» وكان الاسم المحفور مُرقطاً، قبيحاً، بشعاً، قاسياً، كفراشة رمادية تحاول التحليق ولكنها عاجزة.

وقفت جانباً وأنا أرى لاو قوه يُصاب بالذهول. وتذكرت عندما كنت في السابعة أو الثامنة من عمري، في بداية تعلمي الكتابة، أن أمي علمتني حفر اسمي على الشجرة، وقالت لي: «احفر اسمك على هذه الشجرة، حتى تستعملها في المستقبل لصناعة الأثاث والزواج» ولكن من زرع شجرة الباراسول هذه في الفناء؟ لم يكن لدي فكرة على الإطلاق.

يذكر لاو قوه بوضوح أنه قد زرع هذه الشجرة منذ خمسة عشر عاماً، أما أمي فتتذكر أنها عندما ولدتني اشترت شتلة هذه الشجرة بمبلغ ٢ ماو. تشاجرا بلا توقف، وكانت هذه المرة الأولى التي تشتم فيها أمي علناً، وهكذا بدأ الصخب والعويل. تطاير شعرها وهي تهز الشجرة وتقتلعها من مكانها، وأدمت شفاهها الجافة، واتجهت بغضب نحو المنزل. وكانت بالفعل

تريد أن يعرف لاو قوه أنها هي التي زرعت هذه الشجرة وليس هو.

تحلّق لاو قوه ووالدتي حول الشجرة وتشاجرا بشدة. ورأيت وجه لاو قوه وقد اكتسى بلون أحمر دامٍ وهو يشتم: «أنتِ أيتها المرأة، هل جُننت بسبب الفقر والشقاء، أقدم لك هذه الشجرة لتكون نعشاً لك» وبعد هذه الكلمات، أخذ فأسه واتجه نحو منزله. أدار وجهه ونظر إلى والدتي، وشعر لاو قوه بأن النساء الهادئات الطيبات في المنزل الخلفي ينظرن إلى هذا التعسف والشراسة، فاكتست ملامحه بالألم والحزن أكثر. صرخ في أمي قائلاً: «فلتذهبوا إلى الجحيم مع هذا المطبخ الضيق الذي تريدون بناءه، أتمنى أن تختنقوا فيه أو تتسمموا أو تموتوا، فلتموتوا جميعاً، أتمنى ألا يرتاح أحد منكم».

في هذه السنة لم تقم العائلتان ببناء المطبخ المشترك. لأن لاو قوه تحدانا وأوقف العمل، ووضع جرَّة من الحديد المهترئ احتلت نصف الفناء. كما وضعت والدتي بعد ذلك الشجرة أمام باب منزلنا، وقالت إنه من الأفضل لها ألا تبني هذا المطبخ على أن ترى لا قوه يستولي على هذه الشجرة. «كل شيء في الأرض وله مالك، هذه الشجرة ملكي وليست ملكه، مَن الذي أهابه في هذا العالم على كل حال؟» هكذا قالت وهي

ترفع معي الشجرة إلى العِلِّية. صاحبتني شجرة الباراسول في جميع أحلامي أيام طفولتي. وقد أحصيت من قبل الحلقات السنوية الواضحة وغير الواضحة على الشجرة، ليست خمس عشرة سنة، وليس عمرها ثلاث عشرة سنة، ولكنها في الواقع ثماني عشرة حلقة بنية. من زرع شجرة الباراسول في الفناء؟ شجرة الباراسول التي أحلم ببذورها تسقط من السماء، وتنمو بنشاط في باحة منزلنا. كل شيء، كل شيء ينتمي إلى قصصي العجيبة السحرية. سأذكر هذه الشجرة التي قُطِعَت، وسأذكر قصصي أيضاً.

البقع الحمراء

اكتشفت والدتي في الشتاء أنبوباً للماء الساخن في رصيف النفط في المصنع الكيماوي، كان الأنبوب يمتد إلى خارج سور مضخة الزيت، وتتدفق منه مياه ساخنة وصافية. حملت أمي الطست وراء الطست لتملأه من الأنبوب، وأغرتها المياه الساخنة، فأدخلت يديها وهي تصرخ بفرح: «إنه ماء دافئ ونظيف».

كانت والدتي تأخذنا أنا وأختي الكبيرة إلى البوابة الخلفية للاغتسال وغسل الخضراوات والملابس. وهكذا وفرنا

الكثير من الفحم الذي نستخدمه لتسخين المياه. ووقعت عائلتنا خفية وبشدة في غرام أنبوب الماء الساخن، وأبقيناه سراً وأخفيناه عن جيراننا، ولم يكن أحد يدري أن عائلتنا تخفي أنبوباً سحرياً للمياه الساخنة.

ولكن، في أحد الأيام، كسرت أختي المرآة الصغيرة فجأة، وبكت بكاءً شديداً وهي تقول. «أمي، تعالي وانظري لوجهي، ماذا حدث لوجهي؟» تبعنا الصوت وذهبنا لرؤية وجهها، «ما هذا الشيء؟» هكذا قالت أمي وهي تتحسس وجه أختي وقد تملكها الذعر: «هل تحكين جلدك؟» كان وجهها مُغطىً بالكثير من البقع الحمراء، وشعرت حينئذ بوجهي كله يحكني.

التقطت المرآة ونظرت إلى وجهي، فرأيته مغطىً ببقع حمراء عجيبة. كان صوتي أكثر حدة من أختي، وكنت أصرخ وأنا مغمض العينين. جعلت البقع الحمراء شكلي قبيحاً عن ذي قبل!. دارت أمي حائرة مرتبكة، وأخيراً وقع بصرها على أنبوب الماء الساخن خارج البوابة الخلفية، وأصبح وجهها شاحباً شحوب الأموات وهي تعضُّ على شفتيها وتقول: «لعنة الله على هذا الأنبوب!».

«لعنة الله على أنبوب المصنع» لماذا جعلت أمي تكتشفك؟ كان قلبي يحمل الحزن عميقاً واستياءً وتذمراً شديدين، فكسرت

المرآة الصغيرة، وركضت إلى العِلِّية. تكوَّرت هناك في فضاء منزلي، وأنا أسمع أصوات والدتي وأختي: «أمي لا توفري قطعتَي الفحم غداً لتسخين المياه، أمي لا توفري قطعَتَي الفحم غداً لتسخين المياه، لا توفري أبداً قطعَتي الفحم» أعتقد أن هذا كان أكثر أيام طفولتي بؤساً وحزناً.

جهزت نفسي لعدم الذهاب إلى المدرسة أسبوعاً كاملاً، سأنتظر حتى تختفي هذه البقع الحمراء ثم أذهب. كنت وحيداً أختبئ في العلَية، ولا أجرؤ على لعن والدتي، فقط أشتم وألعن مرات عديدة أنبوب الماء الساخن التابع للمصنع، أيها المصنع هل جميع زواياك سامة هكذا؟، لقد وضعت بهدوء وصمت الكثير من البقع الحمراء على وجهي. كانت البقع تحك جلدي بشدة، وتقيَّح وجهي، وأصبحت البقع علامات مميزة عليه.

حملت هذه العلامات المميزة على وجهي واصطحبتني أمي للتسكع في جميع شوارع مدينتنا لمدة سبعة أيام. مررت على جميع المباني الجميلة، والمباني القبيحة، والمباني التي لم أرها من قبل، والمباني التي حلمت بها من قبل، وفي النهاية عدت من جديد متعباً، مرهقاً، إلى شارعنا القديم القذر، لا أملك مالاً، ولست شجاعاً، ولم أترك المنزل بعد. وقفت في شارعنا وقت الشفق، وأنا أدق على البوابة الخشبية لمنزلنا،

تلفتُ مُتطلعاً في جميع الجوانب، وجدت فقط منازل جيراننا تمتد بلا حدود، والفضاء يحمل جميع الروائح التي تعودت عليها، رائحة المخلل، رائحة الدخان، وعفن أثاث المنزل، ورائحة حفاضات الأطفال، وبراز الكلب، ورائحة سُمَ المصنع الكيماوي. فجأة، نزلت دمعة من عيني: ابتعدت عن شارعنا القديم سبعة أيام، لكنني مازلت لا أستطيع أن أمتنع عن التجوال في غرف منزلي.

ضياع الفرصة

في الحقيقة، منذ خمس سنوات، أُتيحت لنا فرصة الانتقال من منزلنا.

منذ خمس سنوات، قام فريق البناء الذي يعمل فيه والدي ببناء ثلاث عمارات سكنية. وعندما عاد والدي إلى المنزل ضربني على رأسي قائلاً: «هل تريد الانتقال إلى مبنى كبير وجديد؟ اذهب وقل لوالدتك سنسكن في الطابق الخامس، وسيكون لدينا ثلاث غرف كبيرة، وشرفة كبيرة، وحمام أيضاً»

كنت أرقص فرحاً من الخبر، وتحول تفكيري كله في لحظة إلى طائر يتعدى بطيرانه حدود سطح منزلنا وشارعنا القديم بأكمله. وسمعت أن هذه العمارات السكنية بُنيت في

الضاحية الجنوبية، وكنت أعرف أن الضاحية الجنوبية قد بُني فيها العديد والعديد من العمارات الرمادية، حتى أصبحت تُعدُّ من أفضل أربع مناطق في مدينتنا، الضاحية الجنوبية مكان غريب جيد.

في الصباح، اصطففنا كلنا في طابور كخط واحد وغادرنا المنزل إلى الضاحية الجنوبية لرؤية البيت الجيد. كان والدي في المقدمة ليدلنا على الطريق، وكنت أتبعه عن قرب، بينما والدتي وأختي مُتَباطئَتين في الخلف. أتذكر أنه كان يوم أحد، وكان والدي يرتدي ثياب العمل الملطخة بالملاط ويمشي بسرعة، ووالدتي تمشي وتقوم بتكوير كعكة شعرها المتناثرة، وأختي تسحب أمي في الطريق وهي شاردة الذهن تتلفت يميناً ويساراً، أما أنا، فاحمر وجهي، لأنها أول مرة أدخل فيها إلى منزل جميل تملكه عائلتي.

أذكر أننا وقفنا أمام مبنى لم يتم إنجازه بعد. سمعت أن الضاحية أصبحت تعج بأصوات الجرافات وكسارات الزلط، وكانت أشعة الشمس مثل قطع معدنية تربك ناظري. رأيت أربعة نقاشين يقومون بطلاء المبنى بلون رمادي خفيف، ولا يتوقفون عن إسقاط نقاط الطلاء من السقالة على رؤوسنا، إلا أننا، وبمنتهى السهولة والاستسلام تطلعنا نحو النقاشين

والمبنى. وأثناء تطلعنا تغير شيء في نفوسنا وتعابيرنا رويداً، رويداً.

أذكر تنظيم وتجهيزات هذا المبنى. اكتشفت أنه ليس مبنى جميلاً كما توقعت، بل هو شيء أشبه بقفص كبير للحمام، تقاسيمه بلهاء وأبوابه ونوافذه صغيرة، وكل الشرفات ملتصقة إلى جانب بعضها ٠ بحذر شديد. واكتشفت أن مباني الضاحية لا تشبه في شيء المباني الجميلة التي رسمتها جميعاً. وهذا ما جعلني حزيناً. دخلنا المبنى، ومازلنا كخط واحد، دخلنا واحداً تلو الآخر إلى شقة رقم ٥٠١، وهذه المرة كانت أمي في المقدمة. وبعدما فتحت باب الشقة، لم تحْتَج إلا لبضع دقائق لاستكشافها، حتى صرخت في والدي: «ليست جيدة، ليست جيدة، لن ننتقل إلى هذه الشقة».

كان صوتها قوياً وكان صداه يتردد في الشقة الخاوية. وكانت تصطدم هنا وهناك بقلق في الغرفة الثالثة وفي الحمام، وفي النهاية استندت لاهثة إلى الحائط وهي في غاية الإرهاق. حَدقَتْ بالتناوب في والدي وأختي وفي وجهي، ثم قالت بصوت ناعم: «لن ننتقل إلى هنا، هذه الشقة لا تضاهي شارعنا القديم في الراحة والطمأنينة. لا تبدأوا في الشجار، تريثوا، فأنا لا أقول إننا لن ننتقل من فراغ».

تلخصت أسباب أمي في النقاط الخمس التالية:

أولاً: الشقة في الطابق الخامس، وستكون متعبة لوالدي ووالدتي عندما يكبران في السن، فماذا سيفعلون حينئذ؟

ثانياً: على الرغم من أن الشقة تحوي ثلاث غرف، إلا أن هناك غرفتين للنوم، وغرفة للمعيشة، شياو فِيْ وشياو دي كَبُرَا، ولن تكون مريحة ومناسبة. العِلِّية في منزلنا ذات منفعة أكبر من هذه الأمتار الثمانية المربعة.

ثالثاً: المياه ليست جيدة. كما أن لها رائحة كرائحة الجير. شارعنا القديم يحتوي على بئر، ومياه البئر أفضل من هذه المياه.

رابعاً: النافذة تطل على الشارع العام، وهو عامرٌ بالضجيج، إنه بالطبع ليس كالمصنع الكيماوي، لكننا على كل حال تعودنا على رائحة المصنع وضجيجه، وشارعنا هواؤه نظيف ونقي.

خامساً: الحائط لوح من الإسمنت، ليس عازلاً للصوت، إذا عطس أحد خلف الحائط، فسوف يسمعه الآخر في الجانب المقابل، وإذا تشاجرت عائلة، ستسمعها بقية العائلات، وعائلتنا لا تتوقف عن الشجار طوال اليوم، سنكون أضحوكةَ للناس، وبأي وجه سنقابلهم؟

مع انتهاء السبب الخامس، انفجر والدي قائلا: «هل تقصدين أنني سأتشاجر معك؟ تريدين الشجار ولا تريدين أن يسمع أحد، فمَن سيعطيكِ مبرراً معقولاً إذاً؟ أنا أعرف أنك تمثلين دور الملكة في هذه العائلة، وشياو فِيْ تابعةٌ لكِ، أما شياو دي فهو مزعج يحب المكوث في المنزل. لن تقرري بمفردك إذا كنا سننتقل من المنزل القديم أم لا، فمازلتُ رب هذه الأسرة، يجب أن تستمعي لما أريد أن أقوله»

«اسمعا أسباب والدكما ووالدتكما، ومن يريد الانتقال أو مَن يرفض، يرفع يده لنقرر. كانت أختي تجلس جانباً وهي تمط شفتيها، وكانت ماهرة في تفحص الكلمات وتعابير الوجه، وهذا بالضبط ما أرادته والدتي، ولذلك قالت: «لن يقرر أحد بمفرده سننتقل أم لا، سنقرر معاً، صوتوا برفع أيديكم».

«صوتوا بلا تردد. نظر إليَّ والدي بصرامة، وكانت ملامحه مزيج من الصدق والارتياب وعدم الاقتناع، قال لي: «إن والدك الذي يريد أن يسكن في المبنى الجديد يعرف أنك تحلم بالسكن في مبنى جديد».

«مَن يريد الانتقال مع والده فليرفع يده» هكذا أثارت والدتي الحديث مع والدي، وعيناها مفعمتان بالثقة، ومع ذلك تعلو شفتيها ضحكة بائسة يصعب وصفها.

جلست على أرض الغرفة الإسمنتية، تحيطني رائحة الجير التي تُهيَج الأنف. كان قلبي مشتتاً، أين المنازل الجميلة التي تخيلتها مليون مرة؟ أين هي؟ لماذا تختفي بعيداً عن شارعنا وعن عائلتنا؟ رفعت يدي للتصويت تحت تحديق والدتي ووالدي وأختي وتفرسهم في وجهي. أريد أن أنتقل من منزلنا، أريد أن أنتقل إلى مكان غير شارعنا القديم، يدي التي رفعتها تنوب عني، لا عن أحدٍ آخر.

أياد أربع، يدان في مقابل يدين، وباء التصويت بالفشل. انتهى نزاع عائلتنا في الضاحية وقت الظهيرة. أربعة أشخاص خرجوا من باب المبنى، ولم ينطقوا بكلمة. رفعت عيني نحو مباني الضاحية الرمادية التي تكسوها شمس الشتاء، دافئة ومشرقة. غمرت أشعة الشمس الأشخاص الأربعة وهم يخرجون من الضاحية، وكان مظهرهم يختلف اختلافاً كبيراً، فلا تدري ما هو مزاجهم أو فيما يفكرون. وفي الحقيقة، منذ عودتنا، عرفت أن خطة الانتقال من المنزل فشلت، فعندما تقول أمي إنها لا تريد الانتقال من هذا المنزل فلن ننتقل. مررت على العديد من المباني في الضاحية، ولكنني لا أدري أين هي المباني الكبيرة الجميلة، أين هي؟ لا أدري.

حينما أتذكر رحلتنا إلى الضاحية الجنوبية منذ خمس

سنوات، أشعر وكأنني كنت أحلم. ومنذ ذلك الوقت، وكلما أتذكر تلك الزيارة أشعر بالذعر وخيبة الأمل. بقي شارعنا القديم منذ خمس سنوات على حاله، وسكانه على حالهم، أما أنا، فقد ودعت سن السباحة في النهر في فصل الصيف. في الصيف، أقف وأنا أتصبب عرقاً عند البوابة الخلفية وأسرح بنظري في مياه النهر التي تحيط بمدينتنا، مياه النهر تشبه أَصلَة عملاقة قذرة تلتف حول المدينة. أما أنا، فلا أستطيع أن أغطس في مياه النهر السوداء ذات الرائحة الكريهة، ولا أستطيع أن أصارع الأَصلَة العملاقة المهيبة.

الضفيرة

أبقت أختي الكبيرة ضفيرتيها، حتى وصل طولهما إلى خصرها، ولم تقصهما إلى أن بلغت التاسعة والعشرين. كانت أختي تمشي في شارعنا بضفيرتيها متميزة عن غيرها وغريبة الأطوار ومزعجة أيضاً. وإذا ما رأيتها في الشارع بالضفيرتين، فستعرف فوراً أنها فتاة تقليدية من عائلة محافظة.

«متى ستقصين ضفيرتيك؟»

«سأقصهما عندما أتزوج»

ولكن متى ستتزوج شياو فِيْ؟.. عادت بي الذاكرة عشر

سنوات قبل الآن، وتذكرت جميع الشباب بمختلف أشكالهم الذين تقدموا لخطبة أختي. ولعلهم لم يفلتوا من حيل أمي وأختي العجيبة في الاستجواب الدقيق ومحاولة معرفة النية الحقيقية للشخص المتقدم، ولأن أغلبهم لم يفكروا في الاقتصاد والتوفير، فقد فشلوا فشلاً ذريعاً. وقد سبق أن قابلنا مديراً صغيراً لمخزن حبوب، كان مناسباً لظروف عائلتنا ومطابقاً للمواصفات، وكانت أمي وأختي في غاية الفرح، إلا أن هذا الشخص بعث رسالة إلى عائلتي، غامضة ومبهمة للتنصل، وفي النهاية، عرفنا السبب، قال الرجل وهو يحك رأسه: إن شياو فِيْ ذكية جداً ومقتصدة جداً، سيكون العيش معها مخيفاً.

اشتهرت أختي في شارعنا بلقب الذكية المقتصدة، فهي نسخة حيَّة من أمي، ومنذ أن كان عمرها اثني عشر عاماً، أصبحت هي الملكة الثانية في المنزل بعد والدتي، وأصبحت تساعد أمي في ضبط ومراقبة رجال عائلتنا، وقالت إنها لا تريد الزواج بسرعة.

لا أتذكر الآن متى بدأت المناقشات الحادة بيني وبين أختي كل يوم، ولا أتذكر متى انتقلت المشاحنات اليومية بين أبي وأمي إليَّ أنا وأختي. وخلال هذه المشاحنات، كسرتُ

مشطها الخشبي المفضل، ومزقت هي تصاميمي التي رسمتها. كان الحقد بيننا والعداوة ليس لهما آخر، وحتى موقف الشجار الذي حصل بيني وبين أختي قبل انتقالنا إلى البيت الجديد العام الماضي، فهمنا الاتجاه الذي سوف تأخذنا إليه هذه المشاحنات، فتوقفنا على الفور.

كانت كلماتي لها قاسية جداً، وكأنها ستحطم المنزل فوق رؤوسنا. «أريدك أن تخرجي من المنزل وأن تتزوجي، أريد أن أتزوج وآخذ غرفتك» رمت شياو فِيْ مشطها نحوي، لكنه لم يلمسني أو يلمسها، بل وقع على الأرض. شحب وجهها وانطفأت عيناها، ورأيت ضفيرتيها تنسدلان بضعف على صدرها، وأحنت رأسها. وبعد مرور الكثير من الوقت اصطنعت ابتسامة ثم قالت لي: «شياو دي، حالما تتزوج، سأنتقل إلى العلَية، وسأعطيك غرفتي».

أحسست حقّاً أن كلماتي ستحطم البيت فوقنا لفرط شدتها. صعد والدي العجوز وضربني وقرصني ووضع يده على فمي وشتمني، لكنني بالفعل قصدت هذا الكلام، فأنا أريد أن أتزوج من صديقتي وأريد الغرفة. بعدها وضعت أختي ضفيرتيها على صدرها، وذهبت إلى البوابة الخلفية، فتحتها ثم أطلت برأسها نحو المصرف وبكت، وكتفاها الهزيلتان

تهتزان. جعلتني أتذكر أيام طفولتها، فغطيت وجهي براحة يدي لكي لا أرى البوابة الخلفية، وبمشاهد مُضببة تراءت لي أصعب أيام قضتها أسرتي، أنا وأختي بجانب النهر ونحن نجفف الملابس، أنا أحمل عصا بامبو، وهي تعصر الملابس. وفي الماضي، كانت الشمس ذات الأشعة الصفراء تسطع علينا، وحتى الآن، شعرنا لونه أصفر فاتح بلون الشمس.

في الحقيقة الأمر الذي يستحق أن يكون ذكرى هو اليوم الذي بكت فيه أختي. ومنذ ذلك اليوم، ونحن متفاهمان، وقد هدأت العائلة وأسدلنا ستاراً سميكاً على كل ما حدث. عائلة كلٌّ من أفرادها يضمر في نفسه علامات الألم، تسكن في منزل في شارع قديم. الأب، الأم، شياو فِيْ، وأنا، وتحت العلامات يسكن جرح قاتم سببته المشاحنات العائلية. في يوم من الأيام، وفي الليلة نفسها، حلمت أمي وأختي حلماً غريباً، حلمتا أن على سطح منزلنا، مجموعةً من الفئران تتقاتل طوال الليل، وتحطم قطع القرميد وهيكل المنزل، وأحست والدتي وأختي بالمنزل لا يتوقف عن الارتجاج وهما يسمعان صوت الرياح الغربية تضربه بقوة ويسمعان صوت مخالب الفئران، وفي النهاية سُمِعَ صوتُ دويٍّ عالٍ، وأصبح منزلنا كغصنٍ يحمل زهرةً تذبل ويتهاوى على الأرض، انهار المنزل فوقنا. وبعدها، أصبح هذا

الحلم يحوم في ذاكرة كلٍّ من أمي وأختي.

«لننتقل من المنزل» هكذا قالت أمي لأبي، واسْوَدَّ مِحْجَرا عينيها، كان صوتها وملامحها يحملان رعب حلم الليلة السابقة، «لعلَّنا يجب أن ننتقل من المنزل».

كان والدي يأكل حبات الفول السوداني ويحتسي الجعة. وقد أصبح في شيخوخته كتمثالٍ من الصلصال، لا يتحدث. وقبل أن يصبح عجوزاً، كان سكَيراً أخرقَ طيباً.

في الخريف الماضي، كنت أنظف زجاج منزلنا الجديد في مدينة «تشنغ شي» وبعد تنظيف الزجاج من القذارة والتراب، اكتشفت أن بإمكاني الاستناد إلى النافذة وتأمل المدينة، وأن أسرح بنظري في جولةٍ عبر المنزل. وأنا أثق في أنني مهندس جيد لم يتم اكتشافه بعد، وأثق في أن نظرتي وملاحظتي للمباني التي رأيتها قد تخطت حدود التاريخ، الزمان والمكان. المباني، المباني العالية الضخمة، المباني المنخفضة الصغيرة، المباني البديعة، المباني البشعة، المباني التي تسكنونها، كم أحب هذه المباني!.

ومن النافذة، أستطيع أن أرى مكب النفايات الكبير الذي يقع على مساحة ثلاثمائة متر مربع، وأثناء الغروب، تقلي الشمس بأشعتها الأخيرة المكب، فيتصاعد منه ضبابٌ ذهبي

هادئ، وتحجب مباني المدينة التي تتبعثر بشكل فوضوي جزءاً منه، وتظهر المباني والمكب بأشكال لامعة برَّاقة. أما شجيرات الحور التي زُرِعت منذ مدة قصيرة بمحاذاة الخطوط الرئيسة لمجموعات المباني، فقد شكَّلت خطاً أخضر خفيفاً، ويمكن أن ترى أوراق الشجر مبعثرة على الأرض، ولكنني كنت أحب هذه الأوراق، وقد أخبرتني أمي من قبل أن شجرة الحور هي أسرع الأشجار نمواً من غيرها.

في خريف العام الماضي كنت أقف هنا، أقف في المنزل الذي أعطاني إياه والدي، المنزل الذي سأتزوج فيه وأكوّن عائلتي، ولن أفترق عن زوجتي مدى الحياة، وسنحب بيتنا ونحافظ عليه إلى الأبد.

يوميات شهر أغسطس

نظر المحققون إلى المشتبه به، في حادثة سور المدينة وهو ممسكٌ بالباب ويتطلع إليهم. كان صبياً في الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة من عمره، وكانوا قد سحبوه من حمام السباحة إلى المخفر. لم يكن شعره قد جفَّ بعد، وتدلت خُصلتان متقاطعتان كالمقص على جبينه، وكان بنطلون السباحة عبارة عن قطعتي قماش لونهما أحمر، خيطتا معاً، وكانتا أيضاً تقطران ماءً على الأرض. انتبه المحقق إلى عيني الصبي المليئتين بالرعب، وكانت ذراعاه نحيلتين ورجلاه ترتجفان. كان من الواضح أنه مدرك بأنه أوقع نفسه في ورطة كبيرة.

ما اسمك؟

صاحبُ الأنف السائلة.

لم أسألك عن لقبك، هل نسيت اسمك، أم ماذا؟

«لي داشينغ..» لا يناديني أحد باسمي، كلهم ينادونني بصاحب الأنف السائلة، حتى أبي وأمي.

في أي مدرسة تدرس؟

في مدرسة «العَلم الأحمر الإعدادية» ونحن الآن في فترة الإجازة الصيفية، لا نذهب إلى المدرسة.

أنـا أعـرف أنكم في الإجـازة الصيفية الآن، من غير المسموح لك التفوه بـالكلام الفارغ، فلتجب على ما أسألك عليه، هل فـهمت؟

فـهمت، من غير المسموح التفوه بـالكلام الفـارغ.

حسنـاً، تـحرك إلى الأمـام واجلس. لا، لا تـحرك نفسك، لا تحرك مؤخرتك، بل حرك الكرسي نـاحيتك واجلس، كيف لك أن تكون بهذا الغبـاء؟ أنتم أيـها المتشردون الصغار، أدمغتكم أغبى من أدمغة الخنـازير.

متشردون صغار. همهم الصبي بصوت منخفض، أنـا لست متشرداً صغيراً.

أنت لست متشرداً؟ إذا لم تكن متشرداً، فمن المتشرد إذاً؟ آي، لا تقل لي إنك من الطلاب المجتهدين؟

لست كذلك. استدار الصبي بجسده، وحـاد ببصره عن نظرةِ المحقق السـاخرة، ونظر إلى قطرات المـاء على الأرض، ثم نظف حنجرته وقـال بصوت منخفض، العـام المـاضي كدت أن أكون من الطلاب الخمسة المتفوقين، لكنني خفتُ أن يسخروا مني، فتعمدت الإجـابة بشكل خاطئ على أسئلة الامتحـانات. وتحدث معي وانغ ليانجو في هذا الأمر. أنـا لا أخدعك، مَن يخدعك هو كلب.

مَن هو وانغ ليانجو؟

إنه المدرس المسؤول، وهذا أيضاً لقبه، كل معلم في مدرستنا له لقب.

حسناً حسناً، من غير المسموح التفوه بالكلام الفارغ. أسألك الآن، هل أنت مَن رمى بهذا الحجر من فوق السور؟

اختلس الصبي النظر إلى المحقق، ثم أحنى رأسه، ولم يتحدث، فقط رسم كلمةً بإصبعه على ركبته.

لا تريد الاعتراف الآن؟ أنتم أيها المتشردون الجبناء، ترتكبون الفعل ولا تريدون أن تتحملوا مسؤوليته.

لقد رميت هذا الحجر، ولم أتوقع أنه سوف يسقط عليهم تحديداً.

لماذا رميت الحجر؟

لا أدري. لقد دفعتني الشلَّة إلى رميه، لقد خدعوني، وجعلوني أرميه، لكنني شخصياً لا أجرؤ على رميه، هم جعلوني أرميه.

هل أنت غبي؟ أَليس لديك عقل؟ هم يقولون لك أن ترمي الحجر فترميه؟ أَلا أتعلم أن رمي الحجر من هذا الارتفاع الكبير يمكن أن يقتل أحداً.

لم أفكر في هذا الأمر. لقد كانوا أسفل السور، اعتقدت أننا رأيناهم ولكنهم لا يروننا، لم أتوقع أن رمي حجر يمكن أن

يقتل أحداً، إذا كنت أعرف، لم أكن لأرميه من البداية.

هل تعرف هذين الشخصين؟

الشاب والفتاة؟ لا أعرفهما، نحن نذهب ناحية سور المدينة لنلعب، ورأيناهما بضع مرات، فهما يتقابلان في هذا المكان، وفي كل مرة يختاران مكاناً بين الأعشاب الكثيفة للجلوس، ونحن......، نحن.......

وأنتم ماذا؟

ونحن في الأعلى......، ننظر إليهما من أعلى السور، خجل الصبي قليلاً، وكان يحاول بقوة أن يمنع ابتسامة ظهرت على وجهه، وقال: هما يكونان...... هما يكونان...... يقول زعيم الشلّة إنه يعرف هذه الفتاة، فهي تعمل في صالون «اللمسة الجديدة»، وإنها قصّت شعره من قبل.

كم مرة رأيتموهما؟

لا أتذكر بوضوح، وعلى كل حال، فإننا عندما نذهب في الساعة الخامسة بعد الظهر، يمكن للعديد من الناس أن يروهما، أنت تعلم أن «حديقة رينمين» تقع هناك، فهما يشتريان التذاكر من البوابة الخلفية للحديقة ويدخلان.

هل تتعمدون الذهاب لرؤيتهما فقط؟

لا يمكن أن تقول مُتعمداً. احمر وجه الصبي فجأة، وأحس أن دماغه تلف وتدور وأصبح مشتتاً، حتى صوته بدا متردداً،

وأصبح يتمتم بكلامٍ غير مفهوم، قال، في الحقيقة هما...، في الحقيقة هما ليسا بـــ.....، هذا....، في الحقيقة هما يختبئان هناك ويتحدثان.

فأنتم تسترقون السمع عليهما إذاً؟

لم أسمع بوضوح، لم أسمع بوضوح ما يقولان، في إحدى المرات رأيت الفتاة تبكي، بعد أن بكت بلحظات بكى الشاب، وحالما بكى الشاب ضحكنا نحن. واعتقدنا أنهما رأيانا، والمرة القادمة لن يأتيا إلى هذا المكان، لم أتوقع أنهما بهذا الغباء، فقد قَدُما في اليوم التالي إلى المكان نفسه. إنهما غبيان جداً، فقد ظنا أن هذه الأشجار والأعشاب الكثيفة سوف تحجب الرؤية ولن يراهما أحد، لكنهما لم يتوقعا أننا نراقبهما من فوق السور.

تراقبونَهما؟ إذاً لِمَ رميت هذا الحجر؟

لا أدري، أحنى الصبي رأسه مرة ثانية، وقهقه وهو يعد على أصابعه، ثم سأل فجأة، هل ماتا؟، هل أصاب الحجر الشاب أم الفتاة؟

هل كنت تريد أن تصيب الشاب أم الفتاة؟

لم أُرِد إصابةَ أيٍّ منهما، فقط أردت إخافتهما قليلاً.

هل عدنا لجدالك الماكر هذا؟.. إذا كنت تريد أن تخيفهما

حقًّا، لماذا اخترت حجراً كبيراً كهذا، في حين يمكنك اختيار حجرٍ صغيرٍ جداً؟

أنا فقط حملت الحجر، أما زعيم الشلّة فهو الذي اختار الحجر، وقال إنني ضعيف لدرجة أنني لا أستطيع أن أحمل كيس قمامة.

ماذا؟

قال إنني جبان، هو دائماً يقول إنني جبان.

هو قال إنك جبان، فغمرتك الجرأة والشجاعة. يجعلك تذهب لقتل الناس، فتذهب لقتل الناس؟!

هل هما بخير؟ هل مات أحد؟، كان الصبي يراقب تعابير وجه المحقق. تنهد الصبي ببطء، وارتسمت على وجهه ابتسامة مطمئنة لم يستطع أن يخفيها وقال، لم يحدث لهما مكروه، هما بخير، أنتم تريدون إخافتي فقط.

هل تجرؤ على الضحك والمزاح؟ إذا ضحكت مرة أخرى فسيكون لي تصرف آخر معك.

لم أضحك. أخفى الصبي وجهه براحة كفه، وهمهم بصوت منخفض، هل الضحك دليل ضدي أم ماذا؟!.

سكت المحقق برهة، ثم أشار إلى الكلمات في دفتر التحقيق برأس القلم الحبر الجاف، لم يكن هناك الكثير من

الكلمات على كل حال، فقط قام بتعديل علامات الترقيم التي نسيها سهواً.

أين ذهبت بعد الحادثة؟

ركضت، عندما سمعت صرختهما الحادة، ركضت على الفور، فقد اعتقدت أنني قتلت أحدهما. ركضت إلى المنزل، وكان الجو حاراً جداً، فوقفت أمام المروحة لعلَّها تعطيني بعض الهواء البارد، ولكنها لم تفلح في ذلك، فخفت أن تأتوا للقبض عليْ، عندها ركضت إلى حمام السباحة، سبحت لمسافة خمسمائة متر، لا، بل اقتربت من ألف متر، رأيتكم بعدها تقفون هناك، لم أكن أريد التسلل والهرب، ولهذا سلَّمت نفسي لكم ولم أفكر في العواقب.

هل سبحت فقط؟ أَلَم تذهب إلى مكان آخر؟

لم أذهب إلى أي مكان. نظر الصبي بارتباك إلى المحقق، ثم قال، كنت أشعر بالحر الشديد، فذهبت إلى حمام السباحة لأسبح.

أنت تكذب. دعك من هذه الألاعيب وتأدب، أين ذهبت بعدما نزلت من فوق السور؟

أنا لا أكذب، مَن يكذب هو كلب، لقد خِفت، ولهذا ركضت إلى المنزل، وكنت أشعر بالحر الشديد، ولم تفدني المروحة،

فذهبت إلى السباحة، انظر إليَّ، فمازلت أرتدي ملابس السباحة.

حسناً، ماذا عن الشاب والفتاة؟

لم يشاهدانا، حملق الشاب بعينيه، وحينما لم ير أحداً أحس بالارتياح، وحك رأسه، ثم هربا، هذا يدل على أنهما بخير، ربما أصاب الحجر قدميهما، وأعتقد أنه أصاب قدم الفتاة، لأن صوتها كان أعلى من الشاب.

اخرس!، لقد حققنا في ملابسات القضية مسبقاً، وكانت خطيرة، إنَّ هناك دماً على طول الطريق الصغير إلى جانب البوابة الخلفية للحديقة، وحرس المدخل قالوا إنهم لم يروا شاباً أو فتاة.

ما المشكلة في ذلك إذاً؟ كان الصبي يرف بجفنيه ويسأل.

أنا أسألك أنت. كُف عن هذه الحركات وتأدب، لعلك نقلت الجثث إلى مكان آخر؟ أين نقلتها؟

أنت تتفوه بالحماقات!، ولأن الصبي كان قد وصل إلى مرحلة قاسية من الرعب والذعر، نسي بسببها المكان الذي كان فيه، فما كاد ينهي كلامه حتى أدرك أنه تكلم بفظاظة وخشونة، فوضع أصابعه في فمه وعض عليها، وكأنه يريد أن يُرجع هذا الكلام إلى فمه مرة أخرى. وفجأة أحس بشعره الأسود اللامع يقف من الخوف، وفي النهاية بكى بحرقة وهو

يقول...، أنت تريد إخافتي فقط، هما بخير، ولم يموتا، كيف يمشي الأموات على الطرق، كيف للطريق أن تكون عليه آثارُ دماء؟

هل تبكي الآن، بعدما قتلت أشخاصاً تبكي، أنتم أيها المتشردون الصغار، لا تبكون إلا عندما تحين ساعتكم.

دفن الصبي وجهه في كفه وشرع في البكاء من جديد، يبكي ويتحدث، إنهما لم يموتا، لم تكرر كلمة جثث؟، لا يمكن أن تقول على الأشخاص الأحياء إنهم جثث.

بدا أن مستوى الصبي الدراسي ليس سيئاً للغاية، فعندما أعطاه المحقق ساعة لتسجيل اعترافاته، سجلها الصبي في عشرين دقيقة فقط، كما كانت كتابته مرتبةً ومنطقية، وقد أطال الصبي في وصف مشاعره ونفسيته، هل رمى الحجر أم لم يرمِ الحجر؟ هل رمى حجراً كبيراً أم صغيراً؟ وكأنه يصف حكاية تدور حول أناسٍ طيبين وأعمالهم الطيبة، وعندما قرأها المحقق، لم يعرف هل يضحك أم يبكي، وقال له بسخرية إنَّ كتابتك لا بأس بها.

كان الصبي يعي سخرية المحقق منه، لكنه استغل هذه الفرصة لإبراز مهاراته، وقال، أنا الأفضل في صفي في كتابة المقال، وكان المدرس وانغ ليانجو يعطيني دائماً مائة من

مائة في مادة المقال، كان غرضه الأساسي تشجيعي على الكتابة، كانت كتابتي للمقال جيدة.

درجاتك في ارتكاب الجريمة جيدةٌ أيضاً، يمكنني أن أعطيك مائة من مائة، تقتل الناس وتعرف أيضاً كيف تخفي جثثهم.

لم ينطق الصبي، والتفت بوجهه ناحية النافذة، كان الوقت حينها ليلاً، وكانت نظراته تتأرجح في دوائر عديدة في الغرفة، وفي النهاية وقعت عيناه على ساعة المحقق، فسأله بجبن، كم الساعة الآن؟

لماذا تسأل؟ لعلك تريد العودة إلى المنزل للنوم؟

هل الساعة الثامنة والنصف الآن؟ إذا كانت كذلك، فإنني عادةً في هذا الوقت أكون في المنزل أكتب يومياتي.

يوميات ماذا؟ هل تسجل كم جريمة ارتكبتها في اليوم؟

كتابة مذكرات، هو الواجب الذي أعطاه لنا المدرس وانغ ليانجو، كل يوم نكتب صفحة، وسوف نسلِّمها في بداية الدراسة، وفي الحقيقة، كتابة المذكرات ممتعة للغاية، يمكن أن تضيع بها الوقت في المساء.

لا داعي لتسليم واجبك الصيفي، الذهاب إلى المدرسة ليس من شأنك الآن، فسوف تُطرد منها.

تبقى لي ثلاث صفحات، العطلة الصيفية ستنتهي بعد ثلاثة أيام. كان الصبي جالساً أمام الطاولة محدقاً في الورق والقلم الحبر، وتردد لحظة، ثم عاد وطلب هذا الطلب العجيب: أعطني فرصة لكتابة مذكراتي، وأنت لا تستجوبني الآن على كل حال، أريد أن أسجل مذكرات اليوم من فضلك. في نهاية المطاف، وافق المحقق على طلب الصبي، وكان الفضول هو السبب الأكبر لموافقته، كان يريد أن يعرف ماذا سيكتب هذا الصبي في مذكراته.

مذكرات الصبي «لي داشينغ»

الثامن والعشرون من شهر أغسطس من عام١٩٧٤، صباحاً.

تهب الرياح الشرقية بقوة، ويرفرف العلم الأحمر، وتشرق أنهارُ وجبالُ وطننا.

ذهبت اليوم إلى حديقة «رينمين» للتنزه واللعب، وعند مروري بموقع بناء، سمعت فجأة شخصاً يصرخ بخوف وذعر، وكأن حجراً سقط من أعلى المبنى، وبالصدفة سقط على أحد المارة. في هذه اللحظة الحرجة، اندفعت غير عابئٍ بسلامتي، وحملت العجوز المصاب بين يدي.

كانت رأس العجوز تنزف وكأنها نبعٌ فوار ينهمر على ثيابي، والدماء تغطي قميصي الأبيض الجديد، وقد أزعجني قليلاً تلوثُ القميص بالدم، ولكنني ما إن خففت قبضتي وقررت ترك العجوز، حتى لاحت في مخيلتي صورُ جميع الشخصيات البطولية اللامعة أمثال «لي فنغ»، «وانغ جي»، و»تشيو شاو يون» وغيرهم، وفكرت أن جميع هذه الشخصيات البطولية التي كانت تعمل من أجل حماية الناس وممتلكاتهم، لم تكن تهاب شيئاً، حتى الموت لم تكن تهابه، فهل سأخاف أنا من بعض الدماء؟

بعد التفكير في هذا كله، امتلأ قلبي بروح الثورة وبجميع العواطف السامية، حملت العجوز على ظهري، وهرعت إلى المستشفى، وكانت دماء العجوز تقطر على طول الطريق، وعرقي يقطر أيضاً على طول الطريق، وطوال الطريق وأنا أفكر في الإسراع أكثر فأكثر لإنقاذ العجوز، ونسيت تلطخ القميص بالدماء ونسيت التعب، وفي النهاية وصلت المستشفى، وتم إسعاف العجوز. سألني الطبيب عن اسمي، فأجبت، أن مَن يفعل شيئاً طيباً لا يجب أن يُذكر اسمه، إنه من واجبي أن أنقذ هذا العجوز، هكذا قلت.

وياله من يومٍ ذي معنى...

صمتٌ طويل انتاب المحقق بعد قراءته مذكرات الصبي، وشحب وجهه، وقام بقطع ورقة اليوميات من الدفتر وطواها، ثم وضعها في الدرج. وتذكر قول الصبي إن كتابة هذه المذكرات هي واجبه في العطلة الصيفية، وحقّاً هكذا تُكتب المذكرات. كان المحقق يدرك أن الصبي يريد أن يوصل إليه نوعاً من التفسير، ولكن المحقق لم يكن يحتاج إلى هذه الطريقة لشرح موقفه. وقال للصبي فحسب، إن مذكراتك اليوم ستُسَلَّم لي أنا.

بعدها أصبحت القضية موضوعاً طواه الزمن. وقد وجد المحققون الشخصين المعنيين فيها. كانت الفتاة بالفعل تعمل في صالون «اللمسة الجديدة»، وكانت فتاة جميلة بعينين مسحوبتين، وضفيرتين طويلتين تنسدلان على صدرها وشعرٍ يغطي جبينها. لم يظهر أي أثر لجرح، وحسب خبرة المحققين، إذا كانت قد أصيبت بالفعل من الحجر، فإن الطبيب سيقوم بإزالةِ جزءٍ من شعرها الأسود الجميل لخياطة الجرح.

أنكرت الفتاة علاقتها بالقضية، وقالت إنها لم تذهب قط إلى هذه الحديقة، وإذا ذهبت ستذهب برفقة والديها، فكيف إذاً ستذهب للجلوس بين الأعشاب هناك؟، بعدها بعدة أيام، وجد أمن الحديقة الضحية الثانية، وكان قدم لتوه من رحلة عمل،

ويتذكر المحقق أن هذا الشاب كان موظفاً متوسطاً في إحدى المؤسسات الكبيرة، وعند رؤيته، ستعرف تماماً أنه شاب ذو مستقبل بلا حدود، شخص مفعم بطاقة الشباب، وثمة جرح على وجهه كان موضع شك، لكن الموظف شرح ببساطة سبب الجرح، قال إنه كان في فندق خارج المدينة، وسقط على السلم أثناء عودته ليلاً إلى غرفته، هكذا ولا شيء آخر. كان الشاب يتحدث بلهجة صارمة حازمة وهو ينكر أنه ضحية في هذه القضية، وقال، إنني مشغول جداً في عملي، من أين لي بوقتٍ أذهب فيه إلى الحديقة؟

وفي الحقيقة، فقد تخلى المحققون عن هذه القضية لعدم جدواها، وعرفوا بوضوح أن الشاب والفتاة من المستحيل أن يحلا لغزها، لأنهما ليسا طرفاً فيها، وقال المحقق لأحد زملائه، تباً، منْ يوافق على الاهتمام بقضية كهذه مريبة وغير واضحة وغير نزيهة، وإذا لم يهتم بها أحد فلا بأس، لكننا تساهلنا مع هذا الصبي النذل.

كان المحقق يقصد بالصبي النذل «داشينغ»، وكان حينئذ طالباً في السنة الثالثة من المرحلة الإعدادية. وظل المحقق يحتفظ بالورقة التي كتب فيها الصبي مذكراته الخاصة، ظاناً

أن المسألة ما هي إلا مسألة وقت حتى يقع الصبي في يديه مرة أخرى، ولكن العجيب أن المحقق لم يره مرة ثانية، ولعلَّه ليس متشرداً كما زعم.

بعد مرور عشرين عاماً على تلك الحادثة، كان المحقق على وشك التقاعد من مهنته المحببة إلى قلبه، وعندما كان يرتب حاجياته لأخذها، وقع بصره على الورقة التي كتب فيها الصبي يومياته، وتذكر الحادثة. لم يتمالك نفسه من الابتسام والضحك وهو يمسك الورقة الصفراء القديمة، وكان بجانبه زميل شاب تملكه الفضول، فأمسك الورقة وبدأ بقراءة ما فيها، وبعد قراءة نصفها قال: يا لاو لين، ما الذي يُضحك في هذه الورقة؟، عندما كنت في تلك السن كنت أكتب مذكرات كهذه، كتبت كثيراً منها.

وبالطبع، لا يدري الزميل الشاب حادثة أسوار المدينة التي وقعت قبل عشرين عاماً من الآن، ولم يجد لاو لين في نفسه الرغبة لإخبار زميله بالأمر. فمزق الورقة ببطء، وقال، معك حق، كانت كتابة هذه المذكرات رائجة في ذلك الوقت، لا شيءَ مميزاً فيها.

هوامش

١- الزوجة البامبو: وسادة أسطوانية مفرغة من البامبو، يمكن احتضانها في الصيف لبرودتها.

٢- مايي شين شيانغ: كتاب من أقدم الكتب الصينية التي لاتزال موجودة، وتعنى بقراءة الوجوه.

٣- أرهو: ربابة صينية ذات وترين.

٤- الورق الأصفر: ورق يستخدم لحرقه كنوع من الطقوس في الديانات الآسيوية.

يارا المصري - سيرة ذاتية

- مترجمة مصرية
- تخرجت في كلية الألسن، قسم اللغة الصينية جامعة عين شمس القاهرة
- حاصلة على شهادة في اللغة الصينية من جامعة: Shandong Normal University في الصين.

صدر لها:

- «العظام الراكضة» مجموعة قصصية للكاتبة الصينية «آشه» عن «دار الشعب التعليمية في الصين» وعن «دار النشر للجامعات ودار الوادي في مصر» ضمن مشروع يشرف عليه وينفذه «بيت الحكمة للثقافة والإعلام» لنشر مختارات لأشهر الأدباء المسلمين في الصين.

يصدر لها قريباً:

«الذواقة» رواية، للكاتب الصيني: لو وين فو.. عن سلسلة جوائز عالمية الهيئة المصرية العامة للكتاب في مصر.

نشرت قصصاً ومقالات مترجمة من اللغة الصينية إلى اللغة العربية في مجلات: دبي الثقافية والإعلام والعصر وشؤون أدبية وبيت الشعر ومجلة العربي، وصحيفة الأهرام وأخبار الأدب، ومجلة رؤى الليبية.

مشاركة في ورشة لترجمة الأعمال الإبداعية الصينية إلى العربية تحت إشراف الأستاذ الدكتور محسن فرجاني.

١ – الزوجة البامبو: وسادة أسطوانية مفرغة من البامبو، يمكن احتضانها في الصيف لبرودتها. ويقال: في عادات الصين للزواج إن «الزوجة البامبو» رمز للرجل، وهي أكثر ما يعبر عن الذكورة.

٢ – ما يي شين شيانغ: كتاب من أقدم الكتب الصينية التي لا تزال موجودة إلى الآن والتي تُعنى بقراءة الوجوه.

٣ – أرهو: ربابة صينية ذات وترين.

٤ – الورق الأصفر: ورق يُستخدم لحرقه كنوع من الطقوس في الديانات الآسيوية، ويُحرق أيضاً أثناء الجنازات للتأكيد على أن روح المتوفي تحمل الكثير من الأشياء الطيبة في الحياة الآخرة

المحتويات

مقدمة	٨
الفرار في عام ١٩٣٤	١٣
جولة في منزلنا	١٠٨
يوميات شهر أغسطس	١٤٠
يارا المصري - سيرة ذاتية	١٥٦

كتاب «دبي الثقافية»
سلسلة دورية تصدر عن
مجلة دبي الثقافية

١- «نجيب محفوظ.. قيصر الرواية العربية» - ١٩٩٩

٢- «سلطان العويس.. شمس الثقافة التي لا تغيب» - ٢٠٠٠

٣- «المبدعون» - النصوص الفائزة في مسابقة «المبدعون» - الدورة الأولى - ٢٠٠١

٤- «نازك الملائكة.. أميرة الشعر الحديث» - ٢٠٠١

٥- «الرنين» - المجموعة الشعرية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للشاعر السوري أيمن إبراهيم معروف - ٢٠٠٢

٦- «مدارج الرحيل» - الرواية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للروائي المصري خالد أحمد السيد - ٢٠٠٢

٧- «غشاوة» - المجموعة القصصية الفائزة بالجائزة الأولى في مسابقة «المبدعون» - الدورة الثانية - للقاصة الإماراتية عائشة الزعابي - ٢٠٠٢

٨- «حمد أبو شهاب في ذاكرة الإمارات» - ٢٠٠٢

٩- «ليالي الحصار.. أحزان عراقية» - شعر - نصوص لشعراء العراق - فبراير ٢٠٠٣

١٠- «السماء تخبّئ أجراسها» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للشاعر المصري بشير رفعت - ٢٠٠٤

١١- «تيار هواء» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتبة المغربية حنان درقاوي - ٢٠٠٤.

١٢- «الانكسار» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «الصدى» للمبدعين - الدورة الثالثة - للكاتب السوري عامر الدبك - ٢٠٠٤.

١٣- «البار الأمريكي» - المجموعة القصصية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب العراقي وارد بدر السالم.

١٤- «إلى الأبد.. و... يوم» - الرواية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للكاتب السوري عادل محمود.

١٥- «قمر أور» - المجموعة الشعرية الفائزة بالمركز الأول في جائزة «دبي الثقافية» للإبداع - الدورة الخامسة ٢٠٠٦/٢٠٠٧ للشاعر العراقي عامر عاصي جبار..

١٦- «مقالات رجاء النقاش» في «دبي الثقافية» - ٢٠٠٨

١٧- «ليس الماء وحده جواباً عن العطش» - أدونيس - أكتوبر ٢٠٠٨

١٨- «قصيدة النثر أو القصيدة الخرساء» - أحمد عبدالمعطي حجازي - نوفمبر - ٢٠٠٨

١٩- «مدارات في الثقافة والأدب» - عبد العزيز المقالح - ديسمبر - ٢٠٠٨

٢٠ - «من أنت أيها الملاك» - إبراهيم الكوني - يناير - ٢٠٠٩

٢١- «النقد الأدبي والهوية الثقافية» جابر عصفور- فبراير - ٢٠٠٩

٢٢- «قصائد من شعراء جائزة نوبل» اختارها وترجمها د.شهاب غانم - مارس- ٢٠٠٩

٢٣- «الأغاريد والعناقيد» - سيف محمد المري - أبريل - ٢٠٠٩

٢٤- «روايــة الحــرب اللبنانيــة.. مدخل ونماذج» - عبده وازن - مايو- ٢٠٠٩

٢٥- «هنا بغداد» - كريم العراقي - يونيو - ٢٠٠٩

٢٦- «أراجيح تغنّي للأطفال» - سليمان العيسى - يوليو - ٢٠٠٩

٢٧- «الحضارات الأولى - الأصول.. والأساطير» - تأليف/ غلين دانيال، ترجمة/ سعيد الغانمي - أغسطس - ٢٠٠٩

٢٨- «محمود درويش حالة شعرية» - صلاح فضل - سبتمبر - ٢٠٠٩

٢٩- «أنثى السراب (سْكْرِيبْتُورْيُومْ)» - واسيني الاعرج - أكتوبر - ٢٠٠٩

٣٠- «حيثُ السحَرة ينادون بعضهَم بأسماء مُستعارة» - سيف الرحبي - نوفمبر - ٢٠٠٩

٣١- «في غيبوبة الذكرى» (دراسات في قصيدة الحداثة) - د. حاتم الصكر - ديسمبر - ٢٠٠٩

٣٢- «وليم شكسبير (سونيتات)» - د. كمال أبو ديب - يناير - ٢٠١٠

٣٣- «العمارة الإسلامية (من الصين إلى الأندلس)» - د. خالد عزب - فبراير - ٢٠١٠

٣٤ - «نحو وعي ثقافي جديد» - د. عبد السلام المسدّي - مارس - ٢٠١٠

٣٥ - «لكي ترسم صورة طائر وقصائد أخرى من الشرق والغرب» اختارها وترجمها د. شهاب غانم - أبريل - ٢٠١٠

٣٦ - «السرْد والكِتاب» - محمد خضيّر - مايو - ٢٠١٠

٣٧ - «طائر الشعر» - سالم الزمر - يونيو - ٢٠١٠

٣٨ - «أنا والسوريالية» - ترجمة: أشرف أبو اليزيد - يوليو - ٢٠١٠

٣٩ - «الحراك الاجتماعي الكويتي في القصة القصيرة» - د. فاطمة يوسف العلي - أغسطس - ٢٠١٠

٤٠ - «فضاءٌ لغبار الطّلع»- أدونيس- سبتمبر - ٢٠١٠

٤١ - «حجر السرائر»- نبيل سليمان - أكتوبر - ٢٠١٠

٤٢ - «حَبَّات و محَبَّات» - المنصف المزغني - نوفمبر - ٢٠١٠

٤٣ - «الخطاب الشعري الحديث في الإمارات» - (الجزء الأول) - د. صالح هويدي - ديسمبر - ٠ ٢٠

٤٤ -«بابل الشعر» - أحمد عبدالمعطي حجازي - يناير ٢٠١١

٤٥ -«مرايا النخل والصحراء» - د.عبد العزيز المقالح - فبراير ٢٠١١

٤٦ -«رغبات منتصف الحبّ» - زاهي وهبي - مارس ٢٠١١

٤٧ -«المحكمة» - كريم العراقي - مارس ٢٠١١

٤٨ –«منفى اللغة» – (حوارات مع الأدباء الفرانكوفونيين) – شاكر نوري – أبريل ٢٠١١

٤٩ –«الرواية العربية ورهان التجدد» – د. محمد برادة – مايو ٢٠١١

٥٠ –«مئة قصيدة وقصيدة» – د. شهاب غانم – يونيو ٢٠١١

٥١ –«حُلمٌ حقيقي» – محمود الريماوي – يوليو ٢٠١١

٥٢ –«قصائد في الذاكرة» – قراءات استعادية لنصوص شعرية – د.حاتم الصكر – أغسطس ٢٠١١

٥٣ –«جنوب غرب طروادة، جنوب شرق قرطاجة» – إبراهيم الكوني – سبتمبر ٢٠١١

٥٤ –«الفاتنـــة» – جمال بن حويرب – أكتوبر ٢٠١١

٥٥ –«الرواية والاستنارة» – د. جابر عصفور – نوفمبر ٢٠١١

٥٦ –«دون أنْ أرتوي» – (قصائد مختارة) – خُلود المُعلا – ديسمبر ٢٠١١

٥٧ –«في الشعر الإفريقي المعاصر» – (جيل الرواد نموذجاً) – تقديم وترجمة د. حسن الغُرفي – يناير ٢٠١٢

٥٨ –«ينام على الشجر الأخضر الطير» – محمّد علي شمس الدين – فبراير ٢٠١٢

٥٩ –«أَصابِعُ لُولِيتا» – واسيني الأعرج – مارس ٢٠١٢

٦٠ –«أمين معلوف.. العابر التخوم» – بقلم/ عبده وازن – أبريل ٢٠١٢

٦١ –«رُباعيّات الرّاوي» – شعر/ حارث طه الرّاوي – أبريل ٢٠١٢

٦٢ –«الاستشراق وسحر حضارة الشرق» – د. إيناس حسني – مايو ٢٠١٢

٦٣ –رواية «فرسان الأحلام القتيلة» – إبراهيم الكوني – يونيو ٢٠١٢

٦٤ –«موريتانيا موطن الشعر والفصاحة» – موفق عبدالفتاح العاني – يوليو ٢٠١٢

٦٥ – «من أوراق صحفي عراقي» – محسن حسين – يوليو ٢٠١٢

٦٦ – «هذا العالم مجرد مسرح»، قصائد من الشرق والغرب – اختارها وترجمها: د شهاب غانم – أغسطس ٢٠١٢

٦٧ – «ألفُ حياةٍ وحياة»، للشاعر الكوري: كُو أوْن – ترجمة: أشرف أبو اليزيد – أغسطس ٢٠١٢

٦٨ – «فضاء التأويل» – د. عبد السّلام المسدّي – سبتمبر ٢٠١٢

٦٩ – «الصعود إلى الجبل الأخضر» – سيف الرحبي – أكتوبر ٢٠١٢

٧٠ – «الفراشة» – بروين حبيب – أكتوبر ٢٠١٢

٧١ – «شؤون وقضايا مسرحية» – فرحان بلبل – نوفمبر ٢٠١٢

٧٢ – «رحلة في بلاد ماركيز» – أمجد ناصر – نوفمبر ٢٠١٢

٧٣ – «هواجس الرواية الخليجية» – د. الرشيد بوشعير – ديسمبر ٢٠١٢

٧٤ – «أجراس الحروف» – سيف المري – يناير ٢٠١٣

٧٥ – «في النقد التكاملي» – د. إبراهيم محمد الوحش – يناير ٢٠١٣

٧٦ – رواية «الظل الأبيض» (تجربة في الاستنارة) – عادل خزام – فبراير ٢٠١٣

٧٧ – السّردُ و أسئلة الكينونة أو «التنزُّهُ في غابَة السَّرد» – د. حاتم بن التهامي الفطناسي – فبراير ٢٠١٣

٧٨ – رواية «مدائن الأرجوان» – نبيل سليمان – مارس ٢٠١٣

٧٩ – «مختارات من قصائد جلال الدين الرومي» – ترجمة: تحسين عبد الجبار إسماعيل – أبريل ٢٠١٣

٨٠ – «مفاتيح لزنزانة الروح» – محمد علي الخضور – أبريل ٢٠١٣

٨١ – «لا شيء يشبهنا معاً» – عائشة محمد الشيخ – أبريل ٢٠١٣

٨٢ – «كبرياء جريح» – قصائد مختارة – تأليف: مارينا تسفيتاييفا – ترجمة وإعداد: إبراهيم استنبولي – مايو ٢٠١٣

٨٣ – «كتابات النور اللحمر» – نصوص – النور أحمد علي – مايو ٢٠١٣

٨٤ – «رُسُل المَوت» – نص مسرحي – هبة فاروق – مايو ٢٠١٣

٨٥ – «مملكة الفراشة» – واسيني الأعرج – يونيو ٢٠١٣

٨٦ – «عطب الرّوح» – زينب الأعوج – يونيو ٢٠١٣

٨٧ – «يومُ قابيل» – نوري الجرّاح – يوليو ٢٠١٣

٨٨ – «هلاوس» – نهى محمود – يوليو ٢٠١٣

٨٩ – «ضد الغياب» – عبد الصمد بن شريف – أغسطس ٢٠١٣

٩٠ – «حكايات مدن بين الهامش والمتن» – جمال حيدر – أغسطس ٢٠١٣

٩١ – «مآذن وأبراج» – حمود نوفل – سبتمبر ٢٠١٣

٩٢ – «بيضة على الشاطئ» – شريف صالح – سبتمبر ٢٠١٣

٩٣ – «سوانح» – كريم معتوق – أكتوبر ٢٠١٣

٩٤ – «زوجة الملح» – يوسف أبو لوز – أكتوبر ٢٠١٣

٩٥ – «المرأة وعالم نجيب محفوظ» – عبد الإله عبد القادر – نوفمبر ٢٠١٣

٩٦ – «في مديح الحب» – حمدة خميس – نوفمبر ٢٠١٣

٩٧ – «من الشرق الى الغرب (يوميّات)» – سيف الرحبي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٨ – «نصف كأس من الأمل» – شعر / أحمد العجمي – ديسمبر ٢٠١٣

٩٩ – «بوابات المسرح» – محمود أبو العباس – يناير ٢٠١٤

١٠٠ – «مختارات قصصية لأدباء جائزة نوبل» – ترجمة: عبدالسلام إبراهيم – يناير ٢٠١٤

١٠١ – «السيف والمرآة – رحلة في جزر الواق واق» – علي كنعان – فبراير ٢٠١٤

١٠٢ – «التأسيس والتحديث في تيارات المسرح العربي الحديث» – د.عبدالكريم برشيد – فبراير ٢٠١٤

١٠٣ – «طرب وعُرب» – د. معلا غانم – مارس ٢٠١٤

١٠٤ – «الحياة بعين ثالثة» – عادل خزام – أبريل ٢٠١٤

١٠٥ – «(فرانكفونيون ومصريون) مختارات من القصيدة الفرنسية في مصر» – ترجمة وإعداد: أحمد عثمان – أبريل ٢٠١٤

١٠٦ – (جداريات الشام «نمنوما») – رواية – نبيل سليمان – مايو ٢٠١٤

١٠٧ – «مطر الليل وقصائد من الشرق والغرب» – اختارها وترجمها إلى العربية شهاب غانم – يونيو ٢٠١٤

١٠٨ – «بوق العاج» – شعر – صلاح أحمد إبراهيم – يونيو ٢٠١٤

١٠٩ – (هديرُ السَّرد الخمايسي في «السبنسة») – مصطفى عبد الله – يوليو ٢٠١٤

١١٠ – «على جناح الهوى المرأة والإبداع» – ظبية خميس – يوليو ٢٠١٤

١١١ – «هكذا تكلّمت الأغاني» – د. نجوة قصاب حسن – أغسطس ٢٠١٤

١١٢ – «الجاحظية بيتُنا (الطاهر وطار نضال في كل الاتجاهات)» – محمد حسين طلبي – أغسطس ٢٠١٤

١١٣ – «على أبواب بغداد » – رواية / قاسم حول – سبتمبر ٢٠١٤

١١٤ – «أيتها الفراشة.. يا اسم حبيبتي» – شعر / إبراهيم المصري – سبتمبر ٢٠١٤

١١٥ – «الرحلة المغربية إلى بلاد الأرجنتين وتشيلي البهية» – أحمد المديني – أكتوبر ٢٠١٤

١١٦ – «الهُوية والمنهجية بين الإبداع والتهافت» – محمد وردي – أكتوبر ٢٠١٤

١١٧ – «سِيرَةُ المُنْتَهَى – عِشْتُهَا... كمَا اشْتَهَتْنِي» – واسيني الأعرج – نوفمبر ٢٠١٤

١١٨ – «ظاهرة العنف في الخطاب الروائي العربي» –عزت عمر – ديسمبر ٢٠١٤

ملاحظة :

سلسلة كتاب «دبي الثقافية» كانت تصدر أولاً تحت اسم كتاب «الصدى» ثم أصدر رئيس التحرير الأستاذ سيف المري قراراً بتغيير اسم السلسلة بعد صدور مجلة «دبي الثقافية» في مطلع أكتوبر/تشرين الأول ٢٠٠٤؛ ليصبح اسمها «كتاب دبي الثقافية».

١١٩ – «عمّ تبحث في مراكش» (قصص) – محمود الريماوي – يناير ٢٠١٥

١٢٠ – «عن الحب والثأر وأشياء أخرى» (قصص من الأدب العالمي) – ترجمة: سنية سلمان – يناير ٢٠١٥

١٢١ – «البوح اللطيف» (شذرات) – عبدالسلام المسدي – فبراير ٢٠١٥

١٢٢ – «بدأتُ مع البحر» (شعر) – محمد عبدالله البريكي – فبراير ٢٠١٥

١٢٣ – «الضحك تاريخ وفن» – نصر الدين البحرة – مارس ٢٠١٥

١٢٤ – «خَرائطُ مملَكَة العيْنِ» – شعر– عبدالرزّاق الربيعي – أبريل ٢٠١٥

١٢٥ – «صورةٌ جماعية لي وحدي» – شعر– إبراهيم جابر إبراهيم – أبريل ٢٠١٥

١٢٦ – «عشق وحداد» – مختارات من الشعر العالمي– ترجمة: الرداد شراطي – مايو ٢٠١٥

١٢٧ – «الفرار في عام ١٩٣٤» – قصص صينية – تأليف: سوتونغ – ترجمة: يارا المصري – مايو ٢٠١٥

كتاب دبي الثقافية

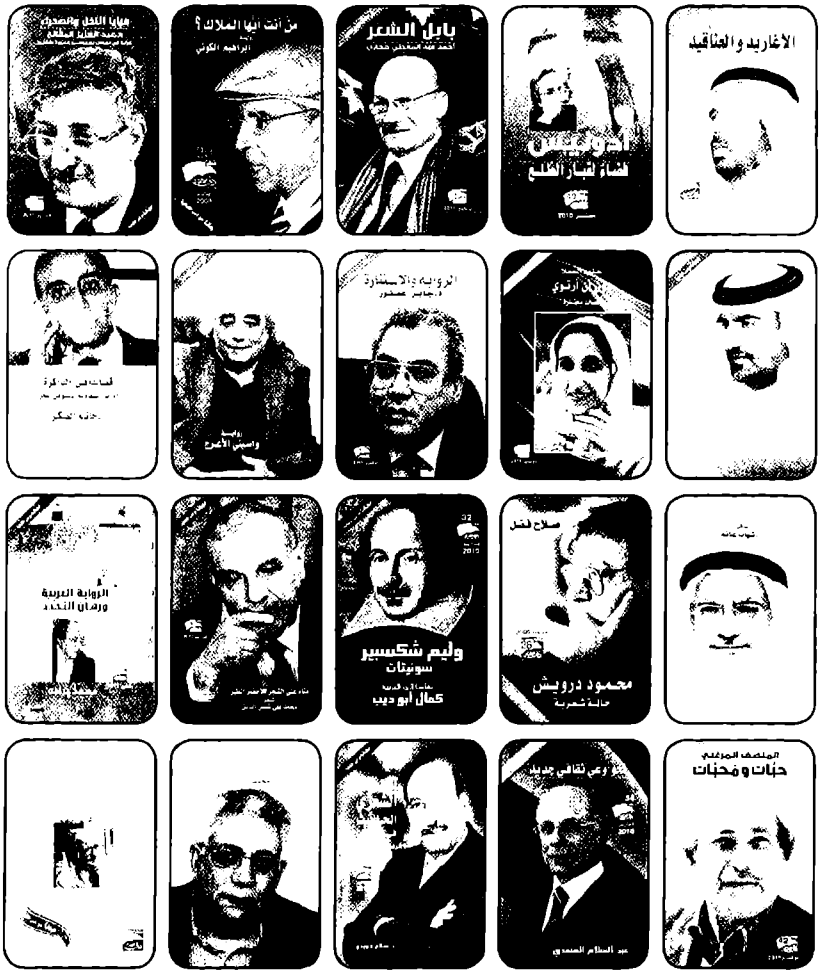

يصدر أول كل شهر ويوزع مجانا مع مجلة دبي الثقافية

رئيس التحرير ، سيف المري

الكتاب المقبل

يونيو 2015

أصوات الرواية

حوارات مع نخبة من الروائيات والروائيين

ترجمة وتقديم:

لطفية الدليمي

الرقم الدولي
ISBN978-9948-18-356-3

يارا المصري

ها نحن ذا في «دبي الثقافية» نقدم لكم هذا الإصدار للكاتبة والمترجمة يارا المصري، واضعين نصب أعيننا ما نذرنا أنفسنا له، وهو نشر الثقافة العربية وتقديمها للقراء الأعزاء من خلال كتاب «دبي الثقافية» الشهري، مع حرصنا على التنويع في شتى مشاربنا الثقافية، تعميماً للنفع، وحرصاً على محاربة الرتابة المفضية إلى الملل، ولن نألو جهداً في إضافة المزيد.

سيف المري

١٢٧

يصدر أول كل شهر ويوزع مجاناً مع مجلة دبي الثقافية

مجلة دبي الثقافية تصدر عن دار

الصدى

للصحافة والنشر والتوزيع